



45  
ابراهيم الكيلاني

923.2  
K231aA  
C.1

# عقبات شامية

في الحكم، والسياسة، والادارة

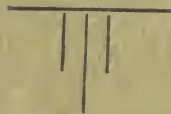
اسعد باشا اعظم

احمد عزت باشا العابد

علي رضا باشا الركابي

مكتب النشر العربي بدمشق

# عقريات شامية



الطبعة الأولى

شهر رمضان ١٣٦٥ - آب ١٩٤٦



كل الحقوق محفوظة لمكتب النشر العربي بدمشق



## كلمة المؤلف

من عظماء التاريخ من ملأ الدنيا وشغل الناس ، ومنهم من بقي — على توفر اسباب العظمة والشهرة فيهم — في زوايا الخفاء والاهمال .

ذلك أن مؤرخي العصور الحديثة رغبوا في دراسة عصور الارتقاء والازدهار ، بقدر ما اهملوا او تغاضوا عن دراسة العصور التي اطلقوا عليها اسم عصور الانحطاط والعصور التركية . وقد امتد هذا الاهمال حتى شمل العصور الحديثة ؛ وفي هذه السنة المتبعة ، التي لم يشذ عنها الاقليون ، محاذير قومية وعلمية عديدة ، لان تاريخ امة يجب ان ينظر اليه وحده لا تتجزأ ، لا مجال للتفاضل والتمييز بين ادواره المضيئة والمظلمة ، اذ هي سواء في الدلالة على « احوال الماضين من الامم » ، وبخاصة فقد ثبت لدى المشتغلين بعلم التاريخ ان شخصيات عدة احاطها التاريخ بهالة من العظمة ، لم تكن من العظمة في شيء ، بل كانت تستمد عظمتها الوهمية من العصر الذي غمرها بنوره وبهائه وروعه .

وكذلك القول في العصور الحديثة ومن نبغ فيها من المعاصرين ؛ فقد

أحجم المؤرخون عن البحث فيها ، وإن أقدموا فبكل حذر وحيطة ،  
لاعتقادهم أن المعاصرين لما يدخلوا في حوزة التاريخ ، وأنه لتعدد الصلات  
والاسباب والمنافع الدينية التي تربطهم بأهل زمانهم ، يتعذر اصدار احكام  
عادلة ومجردة عنهم . فكان من جراء هذه النظرة ان طمست معالم شخصيات  
معاصرة لها قيمتها ووزنها ، وضاعت علينا مصادر ثمينة من مصادر تاريخنا  
السياسي والقومي .

ان تاريخنا السياسي في ادواره الاخيرة حافل بالمغمورين المنسيين المجهولين  
ومن هؤلاء ثلاثة ابطال شاميين ، خرجوا بمواهبهم النادرة عن مستوى  
الجماعات في عصرهم ، وهم : أسعد باشا العظم حاكم الشام في القرن الثامن  
عشر ، وعزت باشا العابد امين سر السلطان عبد الحميد الثاني ، وعلي رضا  
باشا الركابي رئيس الوزارة الفيصلية الاولى وحاكم دمشق العسكري .

ومن الغريب ان اختلاف نفسيات هؤلاء الثلاثة ، وتفرد كل واحد بناحية  
من نواحي النبوغ الحكي والسياسي والاداري ، قد اجتمعت فيهم خصائص  
وحدت بينهم ، منها : وجودهم في عصور مضطربة سادت فيها الفوضى ، تلك  
العصور التي يكثر فيها ظهور النابغين والمغامرين المطبوعين على الجرأة والاقدام  
والاستهانة بالاحطار ، ومنها ، وهي الاهم في نظري ، أن سيرتهم تمثل القيم  
التي ينزع اليها الخلق الشامي طوال العصور .

في سيرة أسعد باشا يظهر نزوع الشاميين ، ككل شعب ودبج مسالم ، الى  
التنعم بالامن والطمأنينة ، والميل الى الانشاء والبناء ؛ فبلادنا التي كانت دوماً  
هدفاً للطامعين والمدمرين والمتغلبين ، والتي ذاقت من الظلم والشقاء ألواناً ،  
تجد النزعة الى الهدوء والاستقرار والطمأنينة على المال والروح ، مثلاً من  
مثل حياتها الاصيلية . ومن يعمن النظر في سيرة أسعد باشا يجد أن الرجل  
على ما اشتهر به من قسوة اقتضتها طبيعة العصر ، كان يعبر عن ميول الشعب

من اقرار النظام ، والقضاء على الفوضى والصوصية ، وشغب الطبقات  
المسكينة الانكشارية والمرتزة .

أما عزت باشا العابد فيمثل جانباً من جوانب الخلق الشامي في ذكائه  
وألبعيته ونباهته . صفات تستوجبها مهنة السياسة ومصاحبة السلطان . فالشامي  
ذكي ، فيه رقة ودماثة مخ ادب وكياسة ، اصبحا مع مرور الزمن واستيلاء  
الغدامة والجلالة على طباع اغلب الشعوب ، عيباً من عيوب الخلق الشامي ،  
فمزت باشا الذي اوتي النصيب الاوفى من هذه السمائل ، توصل الى شق  
طريقه الى ذروة النجاح وسط بحر عجاج بالأمورات والدسائس التي امتاز  
بها العصر الحميدي . وحسبه انه ظل يسير السياسة العثمانية على مرأى  
من اساطين السياسة الاوربية ودهاقينها المجتممين في عاصمة آل عثمان .

اما الركابي باشا فهو يمثل الاستقامة والنزاهة في الادارة ؛ فلامه السورية  
افقدتها عهود الفوضى والظلم نفقتها بالحكام ، لاتزال تموج في أعماق نفوس سهار واسب  
من حب السكال والنزوع اليه ، حتى اصبح نشدان النزاهة في الحكم ،  
والاستقامة ، وحب العدل وكره المحاباة ، ونقاوة اليد والوجدان ، من  
مقومات الخلق الشامي ؛ يشهد على ذلك ميل الشاميين الطبيعي للنقد والشكوى  
وعدم الرضا عن الاوضاع الحاضرة . وقد حقق الركابي ، الى حد بعيد ، هذه  
الغائب الشعبية الباطنة . غير أنه — لسوء حظه وحظ مواطنيه — وجد في  
عهد انقلاب سريع ، تكشف عن مساوي الحكم التركي الانحلاي ، وخضع  
لتيارات الاستعمار الاوربي العنيفة ، مما جعل أثر هذا الزجل في عالم الاصلاح  
ضئيلاً . ولو طال العهد الفيصلي اكثر مما طال ، ولولم تشر السياسة الاستعمارية  
الركابي ، لكان له شأن غير هذا .

ان البحث عن حياة المعاصرين لا يخلو من صعوبة: لتعدد المنافع ، واشتباك



المصالح وخضوع الناس في أحكامهم للعوامل الذاتية التي تخفي الحقيقة عن  
الباحث المجرد . وقد بذلت جهداً في التمييز والترجيح بين الاخبار والحوادث  
المأثورة عن الركابي باشا ؛ فقد أحبه ناس فرفعوه الى السماء ، وكرهه  
آخرون فوضعوه على الغبراء . وقليل هم الذين التزموا الحياد والانصاف .  
ذكر لي احد سعاة دمشق وكبار موظفيها القداماء انه خير من يزودني  
بأخبار الركابي لأنه كان صديقه ولصيقه . فذهبت اليه ، فما كاد يعرف  
رغبتي التي جئت من أجلها ، حتى ثار وغضب ونعت الركابي بنعموت  
أخفها وطأة مسaire الأجنبي ، وتنفيذ خططه الاستعمارية !! وقد فهمت بعد  
ذلك أن هذا الرجل من ضحايا النزاهة الركابية في العهد الفيصلي ، وأنه أقصي  
مدة من الزمن عن الوظيفة لتقصيره في واجبه ، واستغلاله مركزه في أوجه  
غير مشروعة ، مما عاد عليه بالضرر في راتبه التقاعدي !  
ان سيرة الركابي يجب ان تكون مثالا لمن يتصدى للإدارة ، وخدمة  
الدولة والشعب معاً .

أرى لزما علي أن أشكر المحامي اللامع الاستاذ داود التكريتي صاحب  
مكتب النشر العربي لطبعه هذا البحث طبعة تدل على ذوق واناقة .

ابراهيم الكبيسي



# عَبَقِيَّاتُ شَامِيَّةٍ

في الحكم، والسياسة، والادارة.

١ - أسعد باشا العظم

٢ - أحمد عزت باشا العابد

٣ - علي رضا باشا الرطبي

## اسباب العظم

### مهاكم الشام في القرن الثامن عشر

يؤلف القرن الثامن عشر حلقة في سلسلة عصور الانحطاط والهوان التي تعاقبت على الشرق الاسلامي . كانت الدولة العثمانية يومئذ في أوج توسعها ، وهي على ترامي أطرافها الشاسعة لا تربط بين اجزائها رابطة ، ولا تجمع بين أجناس شعوبها المتغايرة جامعة . حتى صار هذا الخليط من الشعوب عاملا من عوامل ضعف الدولة العثمانية الذي أدى بها فيما بعد الى الاضمحلال والتلاشي .

كان يشغل سياسة الدولة في هذا العصر أمران : أولهما دفع الغزوات التي كانت تسيرها روسية وأوربا على الدولة بين آن وآخر، وثانيهما : القضاء على الفتن الداخلية التي كان يشب أوراها في فترات متقطعة في انحاء المملكة . ويفيدنا التاريخ أن عناية رجال الدولة كانت موجهة الى دفع الغزوين الاوربي والروسي؛ أما داخل الولايات العثمانية، حيث استشرى الفساد وعمت الفوضى، فإن الدولة كانت عاجزة عن الفوز بولاء رعاياها والاطمئنان اليهم حتى اذا

استمرت الفتن عمدت الى سياسة التفريق والمراوغة والايقاع بين الرؤساء والحكام وتحريض الزعماء على الاقتتال وانتغالب . وكانت اذا توجست طارئة من وال أو حاكم ، وخشيت امتداد نفوذه سلطت عليه الحصوصم والاقارب والجوار ، الى ان يحين مصير القوي من هؤلاء فيلاقي ما لاقى سلفه .

كان من تقاليد الحكم والادارة في الدولة العثمانية ، اذا فتحت بلاد جديدة ، اسناد المناصب العليا الى ولاة أترك ، والاعمال الدنيا الى أهل البلاد على أن يكون للوالي الحرية المطلقة في التصرف بشؤون البلاد . ولما كانت المناصب والرتب تباع جهرة في ذلك الزمن كان أغلب الطامعين بالولاية هم من المغامرين المتعسفين الذين لم يتورعوا عن التصرف بالامور بمقتضى الهوى والتحكم ، توصلا الى تحقيق المنافع وجمع الاموال بحق وبغير حق . وكان من دواعي الفوضى وسوء الادارة وتمكن الاستبداد ، قلة الموصلات ووعورة المسالك وضمف الادارة المركزية وبمدها عن الولايات ؛ ولذا ظلت الولايات العثمانية تحت رحمة الحكام والولاة ، يجرون أحكامهم على الهوى دون رقيب أو حسيب ليس لهم من وازع الا ضمائرهم ولا ناه الا أخلاقهم ؛ أما اذا كانوا ممن تجردوا عن المروءة وحرموا الوجدان فهناك الشرور والآثام مما لا يستطاع تسطيره !

كانت حكومة العثمانيين في سوريا أيام أسعد باشا العظيم استبدادية عسكرية ، وأعني بذلك ان البلاد كانت خاضعة لسلطة طبقات عسكرية متغلبة تنقاد وفق مشيئة رؤسائها وأهوائهم . ولكي ندرك حقيقة الذهنية التي كانت تقود هذه الجماعات ، وجب أن نعرف الاسس التي قامت عليها أنظمتهم والاساليب التي اتبعوها في حكم البلاد التي دخلت في حوزتهم .

لما عصفت جحافل السلطان سليم الاول بجيوش قانصوه . الغوري سنة ٩٢٢ هـ وفتحت امامهم أبواب سوريا نظر الغزاة العثمانيون الى أهلها نظرة غائم الى



غنيمة ملكت بقوة السلاح ؛ وشرعة العثمانيين شبيهة بشرعة الغزاة الفاتحين وعلى نهجهم تكونت مجتمعاتهم البدائية : ففي سهول منغوليا حيث نصبت في الزمان الغابر مضارب وخيام قبائلهم الحربية التي عاشت في ظل النظام القبلي القائم على الاقتحام والتوثب ، تكونت الصفات الازلية لنشوء الدولة العثمانية التي طفرت بلا تمهيد من دور البداوة الى دور الحضارة .

لم يكن للعثمانيين من غاية سوى الاحتفاظ بثمار الفتح والاستئثار بها واستخدام السكان وتسخيرهم في انماء هذه الثروة ، وكانوا ينظرون الى الشعوب المغلوبة نظرة استهانة واستخفاف ، ولا يبلغن بك الظن أن هذه النظرة موقوفة على الرؤساء وحدهم ، بل انتقلت بخصائصها وصفاتها التحكيمية من الأمر الاول الى جميع المرؤوسين على اختلاف مراتبهم حتى اكتسب المرؤوس في النهاية صفة الرئيس ، فاصبحت شخصية السلطان ، الحاكم الاعظم ، ممثلة في الباشا والمسلم والقائم مقام والآغا الانكشاري ، وهكذا كلما تسلسلت الساطة وتدنت في فروع المراتب الاجتماعية والادارية ارتفعت منها فكرة العدل والرحمة فاصبحت قاسية مستبدة . وحكم العبد اذا ساد اشد وطأة ومضاضة من حكم السيد نفسه .

كان أول ما يشغل بال الباشا اذا ولي ولاية استنباط الوسائل المجدية لجمع اكبر كمية من المال في أقصر ما يمكن من الزمن ؛ وقد جرت العادة بتأزيم جميع هذه الاموال الى ملازمين واعطاهم السلطة المطلقة على المكلفين يحملون الفقراء منهم ما لا طاقة لهم به من ضروب الظلم اشباعا لنهمهم ونهم رؤسائهم الى المال حتى ركنت الطبقة العاملة المنتجة من الشعب الى الخمول ، مكتفية من وسائل العيش بما يقيم الاصلا ب ويدفع غائلة الموت فنضبت الثروات ، واختل نظام الاعمال وتأخرت المهن والصناعات . وكان الناس لما غفلت الحكومة عن حماية مصالحهم وسلطت عليهم الحكام الجائرين والابواب الاغراب من الجند لم يبق في نفوسهم اثر من حب أرضهم فضعفت فيهم اسباب

الهمة ، وماتت قلوبهم من الظلم فهجروا بلدانهم وقراهم حتى قل عدد السكان في الشام بصورة مروعة ، وقيل انه كان في غوطة دمشق اواخر عهد المماليك ثلاثمئة وخمسون قرية ، ولما غادر العثمانيون البلاد كانت في الغوطة نحو ستين قرية فقط . ويقال انه كان في حلب قبل الفتح العثماني ثلاثة الاف ومئتا قرية تدفع الخراج فيميط عددها في هذا العصر الى اربعمئة قرية . ويتحدث الرحالة الفرنسي فولتاي نقلا عن احد معتمدي الاجانب أنه شاهد طوال عشرين سنة من مكثه في سورية بلاداً وقرى كانت فيما مضى زاهية عامرة قد هجرها اهلها واصبحت بلاقع لم يبق من رسومها الا جدران مهدومة وآبار مردومة وحقول مهجورة تبعث الى القلب الحسرة والاسى .

الحق أن هذه الفوضى التي غشيت الولايات العثمانية مردها الى سببين: اولها جهالة الامم المحكومة وتقهقرها لاجتماعي والاخلاقي واخلادها الى المذلة والمسكنة لكثرة ما انتابها من النكبات منذ اقدم العصور بما دعا الولاة الى التادي في العدوان ، وثانيها فساد الامور في عاصمة آل عثمان ، فقد اجمع مؤرخو الترك انفسهم على أن الحل والمقد كان في هذا العصر بيد جماعة اتقنت فن الدسائس والبراعة في استدراار اموال الرعية كي تنعم بحياة السفه والطيش التي تحياها في العاصمة . وقد بلغت الاحوال من السوء أن اقصيت الكفاءات ونولى امور الدولة المقربون من الحاشية والندامي والزنوج الخصيان ، وأصبح القول الفصل في انقصر السلطاني للجواري والسراري يعملون جميعاً في الخفاء على ادارة سياسة الدولة ، ينصبون الوزراء والحكام ويمزلونهم ، وعلى قدر الوسائط واجزال الرشوة يكون الارتقاء في المناصب وبلوغ الأمانى .

كان الباشا صورة مصغرة عن السلطان ، فهو الحاكم المطلق يتصرف بحقوق الرعايا بلا خوف تبعة ، يقبض على السلطتين الادارية والتنفيذية ، بيده حق الموت والحياة ، واشهار الحرب وقرار السلم ، كما أنه معتمد السلطان في تحصيل الخراج والضرائب والاتاوات المقررة . وبقاؤه في ولاية منوط بما

يقدمه الى خزينة الدولة من الأموال الموكول اليه جمعها ، وما يؤديه الى حاشية السلطان من وزراء ومقررين وخدام على سبيل الاستئالة والاسترضاء لينذكروه عند السلطان ويخاطبوه في حاجاته .

كان حاكم الشام يتمتع بالافضلية من بين حكام الباشويات الخمس وهي باشوية حلب وطرابلس وصيدا وفلسطين ، ولعل اماره الحج ، وما لهذه الفريضة المقدسة من اعتبار في العالم الاسلامي ، اثر في هذا التفضيل . وكان الباشا بحكم منصبه مكافأ بنفقات الحج وما يتطلب من مؤن وغلال وأجور المطايا وعلفها ، كما أنه ملزم بدفع مبالغ مقررة الى قبائل العربان لحماية طريق الحج . وهو أيضاً موكل بتقديم ارزاق الجند من الانكشارية وحراس القلاع والحصون الواقعة على طريق الحج . وفي مقابل هذه النفقات يتصرف الباشا بالدخل العام . ومن الغرائب ان الباشا هو الوارث الوحيد للحجاج ؛ وقد عجب الرحالة فولنسي من ان اغلب الحجاج الذين ماتوا في الحج كانوا من الاغنياء !

يقدر عدد القوات المسلحة الموضوعة تحت امره الباشا بستة الى سبعة الاف انكشاري عرفوا بالقحة وانتطاول على الناس يمضد هم جماعات أخرى من الدالاتية ولاوند الاكراد والسباهية والعناتبية وغيرهم من المرتزقة المعروفين بميلهم للسلب والنهب . وقد وصفهم الرحالة فولتاي بقوله : « كانوا يتمنطقون السيوف القصيرة » والطبجات » ، يتنكبون الرماح والبنادق التي علاها الصدا ، يضعون على رؤوسهم الخلوقة فلانس طويلة من الجوخ الاسود ليس لها حواش لرد اشعة الشمس ، مرتدين ثياباً خلقه ، ومتمطين الخيول المختلفة الحجم والطول والالوان ، حتى يخيل للناظر أنهم اشبه بغلول قطاع الطرق ، منهم بمنحود وكل اليهم حفظ الامن ؛ ولا ريب في ان لعادات التلصص التي درجوا عليها وحذوها منذ نشأتهم ، أثر في ترسيخ روح الاعتداء والبطش التي رافقتهم بعد انتقالهم الى الجيش . »



امتاز هذا العصر بظهور أسرة العظم الشهيرة التي تماقبت رجالها على الحكم طوال خمسين عاماً؛ وأشهر أفرادها وأخداهم ذكراً وأطولهم في الحكم زمناً، هو اسمعيل باشا العظم . ان تفاصيل حياته تكاد تكون مجهولة، ومن الغريب ان مؤرخي عصره اهتموا ذكره مع انهم ترجموا لمن هم أقل شأناً منه . ومع ذلك فقد عثرت في كتب التراجم على أخبار ضئيلة كافية لايجاد ترجمة موجزة للبasha المذكور . اما حوادث ولايته فهي مذكورة في مؤلف مخطوط لرجل يدعى البديري الحلاق وهو عبارة عن يوميات كتبت بلغة تقرب من العامية وأودعها صاحبها ماشاهده وما سمعه في عصره ، فهي مصدر ثمين للدراسة الحية الاجتماعية والاقتصادية زمن ولاية اسمعيل باشا؛ وعلى هذا المخطوط كان اعتمادي في اعداد هذا الحديث .

### من هو اسمعيل باشا العظم ؟

هو اسمعيل بن اسماعيل بن ابراهيم العظم ، ولد بمصر النعمان سنة ١١١٧ للهجرة : وكان والده اسماعيل أول من دخل الشام من أسرة العظم؛ يقال ان أصله من قونية وانه جاء دمشق واستوطنها الى ان توفي فيها تاركا ثلاثة اولاد: سمع الدين وأسمعيل ومن سلالتها آل العظم في دمشق وحماه، و ابراهيم وسلالته في مصر النعمان. ويظهر ان اسمعيل كان اكثر فطنة وألمية من اخويه حتى صار متمسكاً لابييه ( المتسلم هو وكيل الباشا او الوالي في حال غيبته عن مقر ولايته ) . وكان اسماعيل باشا والد اسمعيل موكلاً ببعض امور الدولة المالية ، فامتحن بسببها هو وابنه ثم افرج عنها بعد ظهور براعتها . وأمرت الدولة اسمعيل باشا بالذهاب مع والده الى خانية عاصمة كريت فاستغنى لعله كانت به، فأعفى ، وبقي عند عمه سليمان باشا حاكم باشوية طرابلس . ولما أنعمت الدولة على سليمان باشا « بمالكانة » حماه وتوابعها، ذهب اسمعيل معه واظهر نشاطاً عمرانياً فمعر كثيراً من الدور والحنانات والحمات مما ليس له « نظير في بلاد الشام » فانعمت عليه الدولة لقاء هذه الجهود برتبة « روملي » وصار جرداوباً لا مير

الحج علي باشا الوزير سنة ١١٥٣ هـ ، ثم تولى باشوية صيدا فلم يطق الإقامة بها فاستقال فنقل الى حماه سنة ١١٥٤ هـ ؛ وفي سنة ١١٥٦ تولى دمشق وامارة الحج بعد وفاة عمه سليمان باشا ودخل دمشق ، كما يقول البديري ، يوم السبت في الخامس والعشرين من شعبان سنة ١١٥٦ هـ من مسجد الاقصا وهي المحلة المعروفة عند اهل دمشق بمز القصب ، دخل اسعد باشا بموكب عظيم من الانكشارية وأكابر دمشق وأعيانها وبقي في دمشق خمس عشرة سنة ، ثم عزل عنها ، وولي حلب ثم جاءه فرمان بان يذهب الى مصر والياً « فمضت به أهل حلب وقالوا : لا تريد غيره ، وكتبوا للدولة العلية بذلك فقرر بحلب الى اوائل سنة ١١٧١ هـ ثم عزل وولي سيواس ، فرحل اليها وهو يقدم رجلاً ويؤخر أخرى ، فدخلها في اواخر ربيع الاول ، ثم في ثامن رجب من السنة المذكورة وصل الامر العالي عن يد محمد آغا الاورفلي رئيس البوابين بالبالب العالي بالقبض على اسعد باشا ونفيه الى جزيرة كريت فاخرج من سيواس الى الجزيرة فقتل في مدينة اقدرة ليلة خامس شعبان سنة ١١٧١ هـ - ١٧٥٧ م داخل حمام . وقد تعددت الروايات عن سبب قتله فمن قائل ان اسعد باشا حرض العربان على سلب قافلة الحجاج انقاصاً من خلفه حسين باشا مكي زاده الغزي ، ومن قائل ، وهو الاصح في نظري ، ان حسين باشا المذكور اختلف مع الاعراب الموكلين بحماية الطريق على المال المقطوع لهم ، ففتكوا بجنوده واعملوا بالحجاج القتل والسلب والسي ، ومات كثيرون منهم جوعاً وظماً وبردًا حتى بلغ عدد الضحايا اكثر من عشرين الفا . ويصف لنا البديري الحادثة كما لهج بها أهل دمشق يومئذ فقال : « ... وأخبروا عن الاحوال التي حصلت للحجاج من النساء والرجال من شر كفار العرب ، ولا شك في ان هذه الافعال التي فعلت فعلها في الحجاج لا يفعلها عباد النيران : لانهم اخبروا انهم كانوا يسلحون الرجل ويفتشون تحت ابطيه وحمه ، وان وجدوا الرجل كميلاً بطنه بقروا بطنه ، وكانوا يدخلون



أيديهم يمشون بها بعورات الزجال والنساء على السواء ، وقد كانت النساء يضمن على عوراتهم الطين للتستر ، وحاصله صدرت من العرب أمور ما سمعت من قديم الزمان ولا من عباد الاوثان . ثم ما سلم من النشليخ الا الذين هربوا امام الحج ، وان الباشا امر من حوله بنهب خزنته فنهبوها ، فناس سلعوا ، وناس قتلوا ، ثم أقام الحجاج اربعة ايام لاماء ولا زاد ومنهم من مات جوعاً وعطشاً وبرداً وذلك بعدما شرب بعضهم بول بعض ، وما كفى جور العربان بل زاد عليهم جور اهل معان غضب الله عليهم ولعنهم واعد لهم عذاب النيران .

ولما ذاع الحادث في انحاء الدولة العثمانية وتداولته نخلة الناس بالزيادة والنقصان ضج الدمشقيون ومن بينهم التجار الذين فقدوا اموالهم في الجردة وطلبوا معاقبة المسؤولين ، فالصقت اتهمه باسمه باشا حتى آل امره الى مآل . وبعد ايام من الحادث جاء قبجي من جهة الدولة وختم سراية اسمع باشا ، وضبط ماله ، وختم بيوت جميع أتباعه وأعوانه وضبط مالهم ورفعهم الى القلعة ، ثم جاءت اتباع الباشا ودخل القبجي الى السرايا فاخرج الدفائن العظيمة من سرايته فاذا هي كالكنوز ، فأخرجوا من الارض والحيطان والسقوف والاحواض حتى من الادبات دراهم ودنانير وامتعة نفيسة لانتقام بقيمة ومجوهرات مما لا يعلمه الا الله تعالى . « ويقدر الرحالة الفرنسي فولتاي ( وكان معاصراً لاسمع باشا ) الثروة المصادرة بثمانية ملايين من الفرنكات الذهب . هذا وقد كثرت المصادرات في هذا العصر حتى انها الناس ، فصاروا يذفنون ما يملكون من النقود وغيرها في الاخايد والخافي ، ويكتمون الامر حتى عن أقرب الناس اليهم . وكان أغلب من يصاب بالمصادرة الكبراء والحكام والمشتغلون بالصرافة والربا ، وقد ظن اسمع باشا وكثيرون من الباشوات الذين هلكوا واستخرجت الدولة اموالهم ، ان المال مدعاة للسلامة والطمأنينة ودرءاً يقيمهم بطش السلطان وصروف الايالي ، ولم يفتنوا الى انه جالب للمعاطب



وصنوف الملاء . ومن الغريب ان الدولة كانت تعبر عن سخطها على الحكام المتمولين الذين استنزفوا في نظرها اموال الشعب بقتلهم ومصادرتهم ؛ ولكن رجالها لم يفكروا يوماً برد هذا المال الى مالكيه الاولين ، كما تفعل الحكومات العادلة ، وكما يقضي بذلك الحق والانصاف .

كان أسعد باشا شجاعاً ، قوي القلب ، بطاشاً ، طائش السيف هجومياً على الامور لا يبالي بما صنع ، رويت عنه اخبار في محاربة الخارجين على الدولة تدل على جرأة بلغت حد التهور والمخاطرة ، أيسرها مباشرة المارك بنفسه متقدماً جنوده في ساحات الوغى ، وكان قتالا تهون عليه الدماء ، ولا زيب في انه كان متأثراً بروح عصره الذي غلبت على الناس فيه القسوة والاستهانة بالارواح حتى صار قتل الانسان من الامور التي لا تنكر ! شكا اليه رجل يوماً سوء طاعة ولده فغضب الباشا وأمر بان يؤتى بالولد العاق ذليلاً مهاناً وفي المساء « خنق ورمي ! » ونظير هذا ما اصاب فتحجي افندي دفتر دار الشام ، وكان هذا قد تولى مصادرة عمه سليمان باشا وتعذيب اهله وحرمه واتبعاه « وضع في رأسه جبل وسحب الى خارج السرايا ، ثم قطع رأسه وأمر بان يطاف بجثته في سائر شوارع الشام وطرقها وازقتها ثلاثة ايام ففعل به ذلك ، وطيف به عرياناً مكشوف البدن وتركوه للكلاب ، ثم دفنت جثته بترية الشيخ رسلان ، وأمر الباشا بالاحاطة على داره وعلى ماله والقبض على اعوانه » .

وكان أسعد باشا الى جانب هذه الشدة حقوداً ، بلغ من حقه على الامير ملحم والي بعلبك « انه كان اذا وصل اليه عرض من الامير المذكور يضع اصبعه على التوقيع كي لا يقرأه » . لم تكن أيام أسعد باشا بافضل من ايام اسلافه والحق انه كان يتمتع بصفات ومزايا دائمة أفردته عن جبهة الباشوات الذين تعاقبوا على هذه البلاد . ومن مزاياه المستحسنة التي حفظها له التاريخ انه كان شديد الوطأة على اعداء الامن فقد ضبط الامور بحزم ، ورحمى السابلة وتبع المفسدين فأبادهم ، ولكنه لم يكن من ناحية اخرى الا منغذاً

أميناً للسياسة العثمانية الخرقاء القائمة على الفوضى المنظمة وسوء الإدارة التقليدي واستبقاء النفوذ الحكومي بالجور والارهاب . وكان اشد ما عانته الشام في هذا العصر من ضروب الفساد ، تغالب الطبقات العسكرية من انكشارية ودالاتيه وسباهية وعناتية وقبول وغيرهم . وكان ضرر الفتن التي تحدث يقع دوماً على الاهالي . ولعل روح التمرد التي عرف هؤلاء الجنود وضآلة رواتبهم وحاجة الباشوات الاسرافية الى المال ، دعتهم الى التفتير على الجنود والتفاضي عن طغيانهم واعمالهم التخريبية . قال البديري في حوادث سنة ١١٥٨ هـ : « ارسل اسعد باشا يطلب الدالاتية طلباً حثيثاً ، فلما رأت الانكشارية ذلك ضاقت عليهم الارض وقالوا : ان اسعد باشا يريد ان يغدر بنا وهذا الامر لا يخوفنا ، ثم زادوا بحمل السلاح ونهب المال وسبي العرض وسب الدين وغير ذلك من الفظائع . وفي يوم الاثنين ثاني عشرين صفر من سنة ١١٥٨ هـ بينما الناس قبل الظهر في اشغالهم واذا بضجة عظيمة وضرب بارود ، فقبل : ما الخبر ؟ قيل ملكت الدالاتية القلعة فسكرت البلد وزاد الفزع في كل أحد . ولما بلغ الخبر للانكشارية قاموا على قدم وساق وقالوا : اخذت من القلعة يا شباب واجتمعوا في باب الجابية بالسلاح الكامل ينتظرون القتال . ولما وصل الخبر لحضرة اسعد باشا فرح واستبشر ونادى : اطلبوا سوق ساروجة وجدوا في الطلب ! وامرهم ان يتركوا جهة القبلية وكان ذلك حيلة منه وخدعة . ثم نادى في عسكره نداء شاع في البلد بان مرادي احمد بن القلطةجي وعبدالله ابن حمزة ومن لهم من الاتباع - وكانا من رؤساء وامراء سوق ساروجة - هذا والجنك يلعب بسوق ساروجة ؛ وكأنه لم يكن حاكم بالشام الا هم ، فأراد الله تدميرهم . ثم امر حضرة الباشا ان يوجهو المدافع على سوق ساروجة فوجهوها وامر بضرهما بالكل فضربت ؛ فما كان بأقل من حصة يسيرة حتى احترقت الدور وانهدمت البيوت ، واحترق بيت ابن القلطةجي وهدم عن آخره ونهبت المساكن كل ما فيه ثم سرى النهب الى بقية البيوت فنهبوا ومثلوا



وبدعوا وذهب الصالح والطالح حتى صارت محلة سوق ساروجة قاعاً صافصفاً .  
واما ابن القلطةجي فانه فر هارباً بعدما بذل وجماعته من الشجاعة الغاية  
القصوى . ثم امر حضرة الباشا بان تدار المدافع على جهة الميدان فوجهوها ،  
وكان رأس المفسدين فيها مصطفى آغا بن خضري شربجي حتى سمي نفسه سلطان  
الشام وعنده زمرة من الاشقياء يتقوى بهم . وبها ايضاً اولاد الدرزي احمد  
آغا و خليل آغا ولهم بها صولة ودولة . فحين بلغ هؤلاء المفسدين بان حضرة  
اسعد باشا وجه عليهم المساكر بالمدافع أوقع الله الرعب في قلوبهم وركنوا  
الى الفرار وطلبوا البراري والقفار ، وبانهزامهم تقطعت قلوب بقية من كان  
من شجمان أهل الميدان ، فمنهم من هرب ولحق بساداتهم ، ومنهم قبر في  
المغائر والقبور ، ومنهم من غطس في النهور . ولما وصلت الميدان المدافع لم  
يجدوا فيها من يدافع . فأول ما اشتغلت المساكر بهدم دار ابن خضري بعدما  
نهبوا جميع ما فيها ، وكذلك فعلوا بدار ابن حمزة وبغيرها من الدور حتى  
نهبوا نحواً من خمسمائة دار وبعد ذلك اشتغلوا بهدم الدور التي نهبوها .  
وأرسل اسعد باشا - أسعده الله وقواه - الى مشايخ الحارات وأتمتها بان  
يقبضوا على بقية الاشقياء الموجودين ، وان لم يفعلوا يلزمهم بغرامة اموال  
عظيمة ، فصاروا يتنعمون الاشقياء واحداً بعد واحد ويقولون لحضرة الباشا :  
هذا الشقي الفلاني ، وهذا الآغا الفلاني ، وهذا الشريجي الفلاني ، وحضرة  
الباشا يأمر بضرب اعناقهم امام باب السرايا وترك اجسامهم تأكل منها الكلاب  
مدة طويلة حتى صاروا عبرة لمن اعتبر . فسكنت بعد ذلك الشام وصارت  
كقندح لبن . وقد امتنت البرية بعد ما كانت تقول كبراء الميدان واعوانهم :  
لو جاءنا عشرة باشاوات ومعهم السلطان ما حسبنا لهم حساب . فانظر الآن  
فقد صاروا أذل من الذباب وطما لا تحس الكلاب ... وقد زينت البلد والمدافع  
تضرب صباحاً ومساء مدة شهرين والنوبة مع الالعب النارية وفي ذلك قلت :  
أين الزلافة التي كانت شبيهة السيف جزمات لايشملحوها بالشتا والصيف



ان شاف واحد صديقه لا يقبله كيف ديك الزلاقة مضت يا حيفها يا حيف! الى جانب هذه الفوضى المروعة ، كانت الشام تقاسي مساويء الانحلال الاجتماعي وصراع الأقليات والمصيبات الجنسية والدينية التي كانت تستحيل دوما الى فتن اهلية تجري فيها الدماء وتزهق فيها الارواح . قال البديري : « وفي ليلة الرابعة والعشرين بعد صلاة التراويح قتل كردي يقال له قرامصطفى في الحدرام ولم يعلم غريمه ، فاتهموا فيه رجلا بغدادياً ، فتسلحت الاكراد وتزلت حتى وصلت الى الدرويشية وباب الجابية لعلهم يصادفون احداً من البغادة ليقتلوه فلم يجدوا ، وكانت الخلائق في الدرويشية صفوفاً والوفاء فبهجوم الاكراد تفرقوا وهربوا ودخل الخوف والرعب في قلوب الناس . » ان امثال هذه الحوادث كثيرة اوردنا منها غيضاً من فيض ؛ وكان الصعاليك من ابناء الشام يتخبطون في جهالة عمياء وبؤس شديد اراحهم من التفكير والقلق ؛ اما بقية الناس من تجار وزراع ومتمولين فقد كانوا يعيشون في حذر وخوف ، موزعي القلوب ، دأبهم المحافظة على ثرواتهم باخفاء علامتهم الترف والسعة والظهور بظهر الفقر دفعاً للتعدي والمصادره ، وحفظ المال في عهود الاستبداد والفوضى اصعب من كسبه وقديماً قيل : درهم من الذهب يحتاج الى قنطار من العقل ، والماعقل من يخفي ذهبه وذهابه ومذهبه ؛ وما اكثر ما كان بيت اهل دمشق خائفين وجلين على ارواحهم واموالهم . قال البديري : « في يوم الاربعاء بعد المغرب شاع خبر حتى وصل الى السرايا ( وكانت السرايا يومئذ في جادة الدرويشية ) بان احمد ابن القلطي حجي ( الذي كان من رؤوس الزرباوات والذي هرب وعصى في جبل الدروز ) هاجم ليلة الاربعاء على الشام ، فما اشأها من ليلة على اهل الشام من كثرة ما دهمهم من الخوف والزعب والسرور واخلاء البيوت والدكاكين ، وقد صفت المتاريس في جميع البوابات ، وكانت ليلة من هولاء ليلة القيامة لم يذق اهل الشام بها نوماً

قط وهم ينتظرون طلوع الفجر. فلما لاح لهم لم يجدوا شيئاً مما توهموه. وكان الخبر كاذباً! .

ويقول أيضاً : « ولما كانت ليلة الاربعاء اجتمعت من الانكشارية جماعة في حارة السويقة ، وصاروا يقوسوا ويفزعوا الناس الى ان سكرت اهل الشام البوابات ، ولما ظهر النهار هجموا على باب الجابية وقوسوا الى ناحية باب السرايا فبلغ امرهم حضرة اسعد باشا فاغتاض غيظاً شديداً ، وجاءت الموالي (جماعة الباشا) وعمل ديواناً ثم أرسل الباشا يطلب منهم الاشقياء الخارجين عن الطاعة فتغلظت اكباد الانكشارية وتقووا وظنوا انهم هم المنصورون ، ثم صاح الباشا في جنده وركب في نفسه وطلب جهة الميدان فلم يقف بين يديه احد وهجم هو وعسكره عليهم ، فلم يزل يضرب هو وعسكره بالسيف الى ان وصلوا الى باب الله فقتلوا منهم كثيراً ، والذي ما أرادوا قتله اخذوه ووضعوه في الجتير ونهبت المساكن الميدان ولم يتركوا كبيراً أو صغيراً الا قتيلاً أو أسيراً ، ولم يتركوا بيتاً ولا دكاناً ولا امرأة ولا طفلاً الا استعملوا النهب والسبي ، وانتكسب اهل الشام نكبة في ذلك العام ما عهدت مثله من أيام التيمور ... وثاني يوم الخميس قامت جماعة الباشا الى النهب فمنعهم وأمر بجمع الملوالبات من المساكن وغيرهم وأن يوضعوا في بعض الجوامع وأمر منادياً ينادي : كل من له منهوب فليأت ويعلمه ويأخذه فاحذوا البعض وذهب الاكثر . »

كان أسعد باشا ذا شخصية متناقضة وكان يجمع الى شدته وقسوته ميلاً الى التقوى والصالح : فقد كان ملازماً للصلاة وزيارة الرسول اثناء تروده على الحرمين الشريفين ، ميلاً للبناء والانشاء؛ أجرى اصلاحات حجة وأقام النظام وانشأ الدور والجسور والمرافق ورمم المساجد والمآذن . ومن الآثار التي خلدت اسمه على مدى الايام واتي تشهد برقي الزخرف والهندسة الشاميين في القرن الثاني عشر القيسارية المعروفة بخان أسعد باشا في سوق

اللزورية التي قال عنها الشاعر لمرتين انها من أجل قيساريات الشرق وان  
قبابها ذكرته قباب كنيسة القديس بطرس في روما . ومن آثاره أيضاً  
القصر الذي يشغله المعهد الفرنسي في سوق الزورية ، فقد بني في مكان دار  
معاوية بن ابي سفيان . يقول البديري : « اخذ الباشا ما حولها من الخانات والدور  
والدكاكين وهدمها ... وجد واجتهد في عمارتها ليلا ونهاراً ، وقطع لها من جملة  
الخشب اثني عشر الف عمود خشب ، ما عدا الذي أرسله له كابر البلد والاعيان  
من الاخشاب وغيرها ، ورسم على حمامات البلد ان لا يباع قصر مل لا أحد بل  
يرسل لعمارة السرايا واشتغلت بها غالب معلمي البلد ونجارها وكذلك الدهانين  
بل قل ان يوجد معلم متقن او نجار او دهان ، والجميع مشتغلون بها . وجلب  
لها البلاط من غالب بيوت المدينة اينما وجد بلاطاً او رخاماً وغير ذلك مثل  
عواميد وفساتي يرسل بقلعها ويرسل القليل من ثمنها . وكان في قرب تربة  
البرامكة قصر يقال له الزهرائية ، قيل هو من عمارة الملك الظاهر وهو على  
نهر بانياس مطل على المرجع الخضراء انهدم وأخذ انقاضه ، واخذ انقاض  
طاحونة كانت على نهر بانياس في وادي كيوان ، ونقل من بصرى احجاراً  
واعمدة من الرخام شيئاً كثيراً ، واخذ من مدرسة الملك الناصر في الصالحية  
اعمدة غلاظاً جيء بها على عربات تجر بالبقر ، وهدم سوق الزنوطية التي فوق  
العمارة ، وكان كله اقبية معقودة فأمر بفكه ونقله الى داره ... »

ويظهر ان أسعد باشا قد افرج وسعه في بناء هذه الدار وزخرفتها وتنميةها  
حتى شغل عن المصالح العامة وامور الناس ، وكان يرمي من وراء بناءها الدلالة  
على عظم منصبه واظهار ما عنده من الابهة والسلطان . قال البديري : « وكان  
وزير الشام مشغولاً في عمارة داره ، ولم يلتفت الى رعاياه وانصاره ، ويقول :  
انتوني بحجارة المرمر والرخام والسرور وتفننوا بالبناء والنقوش والتحلية  
بالذهب والفضة ... وكلما سمع بقطعة او تحفة من رخام أو قيشاتي او غيرها  
يرسل يأتي بها ان رضي صاحبها أو أبي ... »



وفي سنة ١١٦٤ هـ تم بناء الدار فأقام الباشا مأدبة كبيرة دعا اليها الكبراء  
ولوجهاء فزيت دمشق في هذا اليوم المشهود « فذبحت الذبائح واعطيت  
المنايح » ويجد رواد القصر اليوم نقوشاً ماثلة على الجدران تخلد تلك الذكري  
نورد مقتطفات منها :

و شكره خلد النعماء تخليدا	حمداً لمن منح الاحسان والجودا
اولاه مولى الورى نصرأ وتأيدا	ووفق البطل الكرار اسعد من
راياته لهم ما كان مسدودا	امير حجاج بيت الله من فتح
وبدد البغي والعدوان تبديدا	صدر الصدور الذي دان الزمان
كتائباً وجيوشاً عملاً ابيدا	كم فرقت عزمات منه ماضية

ونجد أيضاً على بعض الجدران :

في ذروة المجد مقام كبير	يا أسعد الحظ ويا من له
ودمت محروس الجناب الخطير	ساعدك الرحمن رب السما
بحفظ آيات الكتاب المنير	في دولة محفوظة سرمداً
ومأمن اللاجي ومن يستجير	عمرت بالتقوى ديار الهنا
لما له أخلص منك الضمير	ونلت كل الخير من ربنا
شرقاً وغرباً طاب منك العبير	يانفحة المنديل من ذكره
محاسناً جلت بناها الامير	يا جملة الناس قفوا وانظروا
شيده أسعد باشا الوزير	بيت أنى تاريخه للمنى





احمد عزت باشا العابد





## احمد عزت باشا العابد

كاتب سر السلطان عبد الحميد

الى جانب الفوارق العديدة التي تفصل بين المنصرين العربي والتركي ، لم تكن جامعة الدين بكافية للتقريب بين هذين الشعبين ، وبحو العداء التقليدي الذي زاده جور الاتراك رسوخاً وغوراً ؛ ولذا كانت الدولة العثمانية معرضة ، طوال العصور ، لحركات انفصالية عنيفة ، وثورات عربية وغير عربية ، وبخاصة ، عندما توالى على الدولة في القرن التاسع عشر ، الكوارث في البلقان ، واشتدت وطأة الاوربيين على « الرجل العليل » .

على أن مقام الخلافة ظل في نظر العرب بعيداً عن كل تهجم ، وموضعاً للقداسة والتبجيل ؛ وكان الخليفة العثماني مناط آمال المسلمين ورمز وحدتهم ومعتد رجائهم ؛ وكان كل اعتداء تقوم به اوربا المسيحية ، يوحد بين العرب والترك ، وينسبهم مؤقتاً العداوة والبغضاء . والحق أن لشخصية السلطان عبد الحميد ومهارته ، أثراً بعيداً في ترسيخ فكرة الجامعة الاسلامية في الازهان واعلاء شأن الخلافة في الشرق والغرب .

كان عبد الحميد يعتمد في سياسته الداخلية على البطش تارة ، وعلى المراوغة تارة أخرى ؛ وكان يرمي الى تثبيت دعائم الخلافة والفوز بولاء العرب والمسلمين ، ولو ادت هذه السياسة الى الاضرار بمصالح رعاياه العثمانيين ، وقد بلغ من حرصه على هذا الولاء ، وامعانه في تحقيق اهدافه ، أن قرب اليه زعماء العرب ، وأصبح له في البلاد العربية ، بواديها وحواضرها ، دعاة ورسول مبشرون ، يدعون له تحت ستار الدين والخلافة ، ويقومون بمهمة التجسس واثارة العداوات بين الخارجيين على الدولة ، بمن يخشى نفوذهم أو امتداد سلطانهم .

✓ كان العنصر العربي أكثر العناصر تقرباً من خليفة المسلمين ، حتى بات العدد الوفير منهم منبثاً في دوائر القصر السلطاني : يتولون الامور الدينية والادارية والسياسية . وكان منهم حرس السلطان ، الى جانب حرسه الخاص المؤلف من الاتراك والالبان والشر كس والاكرد والجلبيلين . نعم ان من هؤلاء الاعاجم من تولى الوظائف الهامة ، عسكرية ومدنية ، فكان منهم الوزير والسفير ، الا ان السلطة الحقيقية كانت في يد العرب ، ألم يقل أحد المؤرخين الاوربيين « ان باب يلدز للاتراك والالبانيين وغيرهم ، ولكن داخله كان للعرب ! »

كان عبد الحميد في شبابه مندفعاً وراء اللهو ، مسرفاً في المجون والتهتك واشباع رغائبه الجنسية ، حتى كادت تنفأ أعصابه ، فحذرته أطباؤه من عواقب تبديد قواه ، فغير فجأة مجرى حياته ، وهجر اللهو ، وانطوى على نفسه ، مؤثراً البساطة في العيش على الرفاهية ، وانتابته حالة روحية غريبة (١) جعلته يكثر من التعمد ومعاشرة شيوخ الطرق الصوفية والدرأيش ومباحثتهم ، وصار يؤمن بالاسحر والطلسات والتنجيم ، وفتحت ابواب القصر

(١) عندما تولى السلطان عبد الحميد قرب اليه كثيرين من مشايخ الطرق عرف منهم الشيخ محمد ظافر الطرابلسي المغربي النقشبندي مرشد الحضرة =



في أوجه الصالحين والانتقاء ، والدجالين المغامرين على السواء : يعملون كلهم على استغلال تطير السلطان وجبه للمدح والاطراء ، وإيهامه بجلائل الاخطار والمخارف التي تحيط به حتى أوهموه أنهم خير من يرد عنه الفوائل ويدفع الالهوال والمكائد (١)

وقع السلطان عبد الحميد اذن تحت نفوذ هؤلاء المغامرين ، وصعب عليه التخلص من قبضة أناس نصبوا أنفسهم للدفاع عنه . نعم كان في مقدوره الاعتصام في قصر يلدز المنيع وزيادة عدد الحراس والجنود ، ودفع نصف شعبه للتجسس على النصف الآخر ، ولكنه كان يخشى العزلة وفقد الاعوان ، ويخشى أن يكون مصيره كمصير أسلافه الذين لم تعصمهم القصور العالية من المعتالين ؛ فكان الاجدر أن يوكل حمايته الى جماعة تقضي مصالحهم الشخصية بصيائمه من كل سوء وأذى ، حتى صار لا يرى الدنيا الا باعينهم ، ولا يسمع

= السلطانية والشيخ رحمة الله الهندي والشيخ سعيد الجسر من طرابلس الشام .

أما أشد هؤلاء نفوذاً وخطراً ، فهو ابو الهدى الصيادي الذي ينتمي الى اسرة عريقة في حلب ، وهو يمثل الطريقة الرفاعية في عاصمة آل عثمان ؛ وقد استطاع بدهائه أن يجمع حوله ألوفاً من المريدين والاتباع .

كان هؤلاء المشايخ في حرب دائمة ، سلاحهم الدس والكيد في الخفاء والشم والسباب في العلانية ، وكانوا يتدافعون للفوز بالخطوة السلطانية . ولا ريب في أن جزءاً كبيراً من مقدرات الدولة كان بين ايديهم .

(١) كان عبد الحميد يعلم سلطان الدين على نفوس رعاياه ، فأراد ان يكسب محبتهم عن طريق التدين والورع ، فأوعز يوماً الى جرائد العاصمة بدرج القطعة الآتية : « ان وارث السلطنة الشرعي الامير عبد الحميد افندي قد امتنع عن الاكل منذ يومين في دائرة الخرقه الشريفة ، وانهمك في استمداد العون من روحانية صاحب الرسالة ، وهو يذرف الدموع بغزارة لكي يوفق الى اسعاد الامة الاسلامية وقيادتها الى شاطئ السلامة » .

أصوات رعاياه الا بأذانهم .

كان السلطان عبد الحميد شديد المطامع ، بعيد الطموح ، باجاً لتحقيق رغائبه الى طرق معوجة ؛ تولى الملك في ظروف دامية وافقت خروج الدولة العثمانية مشحنة بالجراح من حروبها مع روسيا ، تنابها في الوقت نفسه أزمات اجتماعية وانشقاقات سياسية خطيرة ، نشأت عن ادخال النظام الاوربية في المجتمع التركي . فأراد استغلال هذه الفوضى التي تتخبط فيها البلاد ، فألغى الدستور ، وأعلن حكم الاستبداد ، وشرع في تطبيق سياسة جديدة في تاريخ الدولة العثمانية ، سياسة الجامعة الاسلامية .

كان للخلافة مظهران : مظهر سياسي ، وهو لا يتعدى حدود الدولة العثمانية ، وآخر روحي وهو يمتد الى جميع انحاء العالم الاسلامي ؛ وقد بذل عبد الحميد جهده لكسب ولاء الشعوب الاسلامية المنتشرة في أطراف المعمورة وجعلها اداة لتهديد الدول الاوربية والحد من مطامعها ، وطفقت الصحف الرسمية الناطقة بلسان السلطان وحاشيته تدعو ملوك المسلمين وأمراءهم الى الانضمام تحت لواء الخلافة ، وتسليم الخليفة مقدرات المسلمين وأمر خلاصهم من استعباد المستعمرين الظالمين .

ظل عبد الحميد في السنين الأولى من حكمه ( أي من سنة ١٨٧٦ الى سنة ١٨٩٤ ) يتلمس الطرق الموصلة الى تحقيق نجاح هذه السياسة الجديدة ، فكان مما أوجده الى جانب الهبات وتشجيع المؤسسات الخيرية والدينية ، مدارس للبشرين والدعاة ، على شاكله مدارس التبشير المسيحية ، يجوبون أطراف العالم شرقاً وغرباً ، داعين للرابطة الاسلامية والاخوة الاسلامية ، وظهر منهم دعاة متحمسون توغلوا في الصين وافريقية الشمالية والهند وبخاري والقفقاس والبلقان . ولا ريب في ان الجامعة الاسلامية كانت شجعاً خفياً للأوربيين ، وبخاصة الدول المستعمرة التي يخضع لسلطانها ملايين المسلمين . وكان اتحاد المسلمين تحت لواء الخلافة والقيام بثورة تحريرية اكثر ما كانت تحضاه هذه الدول .

والحق ان السلطان عبد الحميد بتشجيعه العناصر الاسلامية في كافة الاقطار مادياً ومعنوياً ، قد وفق الى ايجاد مشا كل أقلق المستعمرين زمناً ، وقد ازدادت دعوته بعد معاهدة برلين شدة وعنفاً ، الا ان هذا التشجيع كان يجري باذى بدء في الخفاء ، وكان عبد الحميد يتحاشى مناوئة الدول الاوربية المستعمرة علناً ، ولعله كان يشفق أن يؤدي تضامن المسلمين الى تكوين اتحاد مسيحي تقاصره أوروبا لمجاهة الجامعة الاسلامية . وقد علمت التجارب وعبر الماضي عبد الحميد أن تفرق الدول المسيحية كان عاملاً من عوامل سلامة تركيا في جميع ادوار تاريخها ؛ الا أن انفصال المانيا عام ١٨٨٨ عن الكتلة الاوربية ، وانحيازها الى جانب الدول العثمانية ، توصلا الى تحقيق توسعها الاقتصادي في الشرق ، أضف الى ذلك رحلة الامبراطور غليوم الثاني سنة ١٨٨٩ الى الولايات العثمانية ، وما تم بينه وبين العثمانيين من عهود واتفاقات ؛ كل هذا أوجد في نفس السلطان عبد الحميد جرأة واقداماً دعواه الى الجهر بسياسته الاسلامية . الا ان هذه السياسة القائمة على مثل دينية ، لم توجه في طرق صالحة ، فكان مقدراً لها ان تصطدم بالقوميات والشعوب المختلفة المكونة للدولة العثمانية ، التي أخذت تتأثر من تيارات أفكار التحرر التي اشتدت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ؛ فسرعان ما وجد الساسة الأوربيون المتربصون ، ميداناً فسيحاً للتدخل في شؤون الدولة لدفع الخطر عن مصالحهم والحفاظة على امتيازاتهم .

أدى تدخل الاوربيين من جهة ، وأخطاء العثمانيين من جهة ، الى اضطهاد الاقليات النصرية والدينية ، كان بدؤها اضطهاد اليونانيين في جزيرة كريت سنة ١٨٩٤ ، وأعقبها اضطهاد الارمن وحدثت المذابح الأرمنية في انحاء تركيا ؛ وكان الأرمن ، كما نعلم ، خاضعين لنفوذ روسيا وتجريص جميعاتهم المنتشرة في أوروبا . وكانت انكثرتا اكثر الدول ، بومئذ ، عطفاً على القضية الأرمنية ، لاجباً بالانسانية ، بل لوجود ارمينية في موقع جغرافي يجيز لها



منه مراقبة روسيا وحركات جيوشها ؛ ولذا كانت انكلترا اسرع الدول الى الاحتجاج على المذابح الارمنية ، واثارة الرأي العام الاوربي ، حتى حملت الدول سنة ١٨٩٥ على ايقاد لجان رأسها مندوبون بريطانيون ؛ وعلى الاثر وضع مندوبو الدول الثلاث : انكلترا وروسيا وفرنسا ، مذكرة اكدوا فيها ضرورة اجراء الاصلاحات وتحسين أحوال الارمن التي قضت بها معاهدة برلين (١) شمر السلطان عبد الحميد بان احتجاجات الدول لم تكن شكلية ؛ وان انكلترا وفرنسة جادتان في خلق تحالف دولي ضد الدولة العثمانية ، فأوجس عبد الحميد خيفة وتوقع الشر ، وصور له أشياعه ومستشاروه الحالة اسوأ مما كانت عليه في الواقع ، وأوهموه بان المذابح الأرمنية اثارت سخط العالم أجمع ، وان الدول عازمة على التدخل فعلا في شؤون قد تمس سيادة الدولة وسلامتها ، فأسقط في يده ( وهو الشديد التوهم ، المرهف الاعصاب ، الغريب التصور ) وعول على الرضوخ لمطالب الحلف الثلاثي ومعاقبة المعتدين ومسببي الحوادث :

### ظهور عزت باشا العابد

وعندها ظهر فجأة رجل مغمور من موظفي السراي يدعى « عزت

(١) نصت المادة ٦١ من معاهدة برلين على تمهيدات الباب العالي «بوجوب اصلاح وتحسين حالة الارمن الاجتماعية والمادية» .

ومعاهدة برلين حلت سنة ١٨٧٨ محل معاهدة « سان استفانو » بمساعي انكلترا وهي تقضي باستقلال الصرب والجبل الاسود ورومانية ، وانشاء امارة البلقار وجعلها قسمين : أحدهما يتمتع بالحكم الذاتي والثاني جعله تحت حكم الدولة العثمانية ، وأعطيت تساليا لليونان ، واستعادت روسيا اقليم بساراييا الذي انتزع منها سنة ١٨٥٦ ، كما انها حافظت على ممتلكاتها في آسية وهي قارص وباطوم واردهان من ارمينية ، واستولت انكلترا على قبرص بموجب معاهدة خصوصية لقاء توسطها في تبديل معاهدة « سان استفانو » .

العابد ، فقدم تقريراً الى مولاه السلطان جاء فيه : « ان اوروبا منقسمة على نفسها ، وأن مطامع الدول المتباينة تقضي عليها بالمعجز عن توحيد اجراءاتها وعقوباتها نحو الدولة العثمانية ، وان هذا التحالف الذي يهدد به الأوربيون يخفي في الحقيقة وراءه تراحمًا وثنافساً شديدين ، وأنه حري بمولاي السلطان ان يحثى الاوربيين متفقين اكثر منهم مجتمعين ؛ وقد لا يستبعد ان تتظاهر احدى الدول لتركية بالعداء ، وتقدم لها المعونة في الخفاء ، بنية جذبها الى ناحيتها ؛ اذن فلا داعي للخوف والقلق بل يجب الصمود امام التيار والضرب بمطالب الدول عرض الحائط ».

كان عزت مصيباً في وصفه أساليب السياسة الاوربية ، اذ مال بث ان انسحب الروس والفرنسيون من الحلف الذي أوجدته انكلترة ؛ انسحب الروس لانهم كرهوا وجود محققين ومراقبين بريطانيين على التخوم الروسية وكفت الصحف بعد ذلك عن مهاجمة تركية . ويقول « جاك انسيل » مؤرخ المسألة الشرقية : « ان عشرين صحيفة فرنسية تلقت لقاءسكوتهامبالغ ضخمة من السفارة العثمانية في باريس » والاغرب من كل هذا أن بعض الصحف التي كانت تنادي بالامس بفظائع الاتراك وهمجيتهم وترثي لحال الارمن وبؤسهم عادت تتساءل : « عما اذا كانت هناك منطقة تميز القول بوجود مايسمونه « ارمينية ! »

كان لنجاح عزت العابد وقع عميق في نفس مولاه السلطان عبد الحميد ، فقربه اليه وجعله قرينه وأمين سره ومستشاره في الشؤون الاوربية (١) ،

(١) روى احد سراة دمشق قال : « سمعت وانا شاب من سليم او نجيب بك ملحمة انه على اثر مذابح الارمن حين كان ناظم باشا ( والي سورية ) ناظراً للضابطية ان الحكومة الانكليزية سألت الحكومة العثمانية عن عدد القتلى من الارمن وبقيت الوزارة مرتبكة ثلاثة ايام للخروج من هذه =

ومنذ ذلك اليوم عظمت مكانة عزة باشا عند السلطان .

وقد استطاع عزت العابد بما أوتي من دهاء وذكاء والمعية أن يفوز بثقة خصوم الدولة وحلفائها على السواء . وقد بلغ من حذقه ان صير ساستهم ، على حد قول احد المؤرخين ، ألوبة يتلوى بها ، يهزأ منهم تارة ، ويكذب عليهم تارة اخرى ، وهم بذلك مسرورون مقتبطون راضون .

لم يكن عبد الحميد اعجابه بهذا المستشار الوفي ، فقد صاح مرة في جمع من السفراء وأعظم الدولة : « الآن وجدت صديقاً خالصاً ، وأعتقد ان ظهور عزت العابد على مسرح السياسة عامل من عوامل نجاح سياسة عبد الحميد نفسه ، وتألق نجمه مدة حكمه .

### صباة عزت باشا العابد

هو عزت باشا بن هولوباشا بن عمر اغا بن عبد القادر بن محمد اغا ابن الامير قانص العابد ، احد سادات وزعماء الموالي الضاريين في بسادية الشام بين الزور وتدمر .

وفد محمد العابد سنة ١١٦٢ هـ من حماء الى دمشق واستوطنها ، اماهولو

---

=الازمة الخطيرة ، وانكلترة تكرر السؤال وتلج بضرورة الاسراع بالاجابة وعندها أنقذ عزت باشا الموقف فتقدم الى السلطان باقتراح يطلب فيه تكليفه الاجابة على برقيات الانكليز . فكلفه السلطان بذلك . وكان الانكليز قبل بضعة أشهر قد ارسلوا سرّاً باخرة تحمل مئتي الف بندقية الى الارمن الثائرين وعند مرورها بحزيرة اقريطش صادرتها الحكومة العثمانية مع الذخائر . وكان جواب عزت باشا على برقية الانكليز : « ان عدد قتلى الارمن بلغ عدد البنادق الحربية التي صودرت في « اقريطش » .



باشا (١)، والد عزت باشا فهو من الذين تركوا أثراً في الإدارة والحياة العامة ومن أخباره التي حفظها التاريخ ايواؤه الناس في حوادث الستين . وقد أدى هولوا باشا للدولة العثمانية عدة خدمات ، وتقلد مناصب هامة : كمصرفية حمص وحماة و نابلس ورئاسة مجلس الإدارة في دمشق . ولما جاء الفرنسيون بقيادة الاميرل « دوتبول سنة ١٨٦٠ ، كان هولوا باشا الصلة بين الفرنسيين وبين فؤاد باشا الذي اوفده الباب العالي للتحقيق في اسباب الفتنة . وعرف هولوا باشا بقوة الشكيمة والاقدام ، وكانت الدولة ترسله لقمع العربان الثأرين وقد جرت له وقائع دامية معهم ؛ وقيل ان الناس في جبال اللوئين كانوا يخيفون اطفالهم « بالهول » ولا ريب في ان عزت باشا العابد قد ورث عن ابيه الاستهانة بالصعاب وصلابة الارادة وشده المراس .



ولد عزت باشا العابد في دمشق سنة ١٨٥١ م . وتلقى دروسه الابتدائية في احدى كتاتيب حي الميدان ، شأن ابناء الاسر الدمشقية في ذلك الزمن . ولما ايفع أرسله ابوه الى المدرسة العازرية في دمشق ، فمدرسة عينطوره ، ثم انتقل بعدها الى المدرسة البطريركية في بيروت ؛ وكان من جملة رفاقه في المدرسة المرحوم بشارة تقلا مؤسس الاهرام . وكان عزت باشا معروفاً ، وهو على مقاعد الدراسة بالنباهة والفتنة ، فصار يتنافس وبشارة تقلا للفوز بالاولوية ، على أن الاثنين كانا موضع اعجاب اساتذة المدرسة وتقديرهم . لم يستطع عزت باشا لسبب ما ، اتمام دراسته ، بل هجر المدارس في سن مبكرة للدخول في السلك الحكومي ، فلازم الدوائر الرسمية في دمشق ،

( ١ ) حدثني احد آل العابد أنه كانت صداقة بين عمر آغا العابد وابراهيم باشا قائد الحملة المصرية ، فأشار هذا على عمر آغا بتسمية ابنه « ابا الهول » فحرفت مع الايام الى « هولوا » .

واتقن اللغة التركية ، ثم عين كويتياً في مجلس ادارة الشام براتب عشرة قروش تركية في الشهر ، وانتقل بعدها الى وظيفة كاتب ضبط ، فمستطق في العدلية ، وارتقى بعدها الى ان اصبح رئيساً للمحكمة التجارية بدمشق .

ولما كان هولوا باشا ذا نفوذ في الدولة ، فقد سعى لدى احمد جودت باشا المؤرخ التركي والقانوني المشهور ، عند مجيئه الى سورية في رحلة تفتيشية ، لتعيين ابنه عزت مفتشاً للعدلية في سورية ولبنان وفلسطين ، واستطاع عزت بما ركب في طبعه من مرونة وكياسة ، أن يكسب ثقة الناس ، مما اثار حفيظة الولاة : فعملوا على نقله ، فنقل الى سلانيك مفتشاً للعدلية ، ثم رقي الى رتبة رئيس للمحكمة المختلطة بالاستانة ، وبعد ذلك أصبح عضواً في مجلس شورى الدولة مدة اربع سنوات ، ثم عين بوساطة احمد جودت باشا ايضاً — وكان يومئذ وزيراً للعدلية — رئيساً للمحاكم التجارية والمختلطة والاهلية في عاصمة آل عثمان .

وفي سنة ١٨٩٤ رست في مياه البوسفور عدة قطع من الاسطول الالمانى ، فاعتدى بعض رعاى الآستانة على بحارة الاسطول ، فاحتج سفير المانية لدى « المايين » طالباً عزل احمد جودت باشا وزير العدلية لتهاونه في امور تتعلق بالحادث ، فمزل ؛ ولكنه ظل على اتصال دائم بالسراي ، فنقل عزت باشا العايد من المحاكم التجارية الى السراي بصفة كونه كاتباً ثانياً للسلطان عبد الحميد ، على أن يضاف اليه رتبة « قرين » وهي وظيفة المقربين الى السلطان ) .

ولم يلبث عزت باشا أن سيطر على أمور القصر سيطرة تامة .

كان من جملة مطالب رجال « تركية الفتاة » عقب دخولهم الآستانة منتصرين سنة ١٩٠٨ ، عزل حاشية السلطان عبد الحميد وتسليم آخرين وفي جملتهم عزت باشا العايد ، فعمل هذا على الفرار ، وقد بلغ من حب عبد الحميد

لأمين سره المخلص ان أعطاه جوازاً خاصاً على أنه موفد بمهمة رسمية الى مصر ، ونصح به بالسفر ليلاً تفادياً من أعين الرقباء ، فكانت حادثة فراره لا تخلو من طرافة : اذ اعد العدة لشراء باخرتين « الآسوس » و « الماريا » ، الاولى فرنسية تم عقد بيعها في سفارة فرنسا ، والثانية انكليزية ، بمبلغ عشرة آلاف ليرة انكليزية ذهباً لكل منهما ! وكانت شرائه للباخرتين مبالغاً في الحذر وضماناً لنجاح الخطة عند حدوث الطوارئ ؛ اذ صرح ما توقعه فلم يتمكن من تسلل الباخرة الفرنسية في الموعد المحدد ، فنجأ على ظهر الباخرة الثانية . وظلت هذه الباخرة تتجول في البحر المتوسط مدة اسبوعين ونصف ، تضليلاً للرقباء . وكان اتباع « تركيا الفتاة » قد لحقوا بعزت باشا على متن الباخرة الفرنسية ، ويقال انهم ادر كوه في مرفأ « اسبيزيا » في ايطاليا . ولما كانت الباخرة رافعة العلم الانكليزي لم يجسر المطاردون على ايقاف عزت باشا ؛ فرست الباخرة في مدينة جنوى بايطاليا !

لقد شغل اختفاء عزت باشا عند اعلان الثورة ، أذهان الجماهير الناقمة على العهد الخيدي ، وصار الناس يتساءلون عن مصيره ، فمن قائل انه فر الى خارج البلاد ، ومن قائل انه اختبأ في السفارة الالمانية وكانت الجماهير تطوف شوارع لآستانة حاملة لوحات فيها طعن « بالخائن عرب عزت » . وبعد وصول عزت باشا الى اوربا سالماً ، أرسل الى صحيفة « اقدام » الثورية التي تصدر في العاصمة برقية لا تخلو من تهكم لاذع يقول فيها : « ان الناس انكروا الخدمات التي أداها للدولة ومن جملتها انشاء الخط الحجازي ؛ اما الفضائع التي ارتكبها الجواسيس واعوان السلطان ، فهو منها براء . وقد اضطر الآن الى الفرار . وبما أن الدستور يضمن الحريات ، فانه سيعود يوماً الى ترقية للعيش تحت ظلال هذا النظام الدستوري » .

ظل عزت باشا ينتقل في ربوع أوروبا وعواصمها مدة ثماني سنوات ، الى أن استقر به المطاف في مصر ، وفيها توفي سنة ١٩٢٤ عن ثلاثة وسبعين عاماً ،



بعد ما قطن في دمشق ، مسقط رأسه ، حوالي أربع سنوات .

تلك هي مراحل حياة عزت باشا العابد . وتبدو للمطالع انها حياة عادية منزهة عن الاحداث الهامة والصخب الذي تتصف به عادة سير العطاء والتابفين . وقد وجدت عنقاً في جمع شتات هذه المعلومات والتقاطها من أفواه معاصري وذوي قرابة عزت باشا . ويغلب على ظني أن إهمال الناس لسيرة هذا الرجل يعود الى حياة عزت باشا نفسها ؛ فقد جرت في طي الخفاء بين جدران قصر يلدز الثاني ، والى ان شخصية عبد الحميد واحداث عصره شغلت الناس عن التحدث عن حاشيته واعوانه ؛ نعم ان عزت باشا عاش في ظل مولاه « السلطان الاحمر » ولكن احداً لا ينكر انه كان المسيطر الحقيقي على ارادة السلطان حتى بات يسير سياسة الدولة المحلية والشؤون الاوربية منذ دخوله القصر سنة ١٨٩٤ الى خروجه منه سنة ١٩٠٨ .

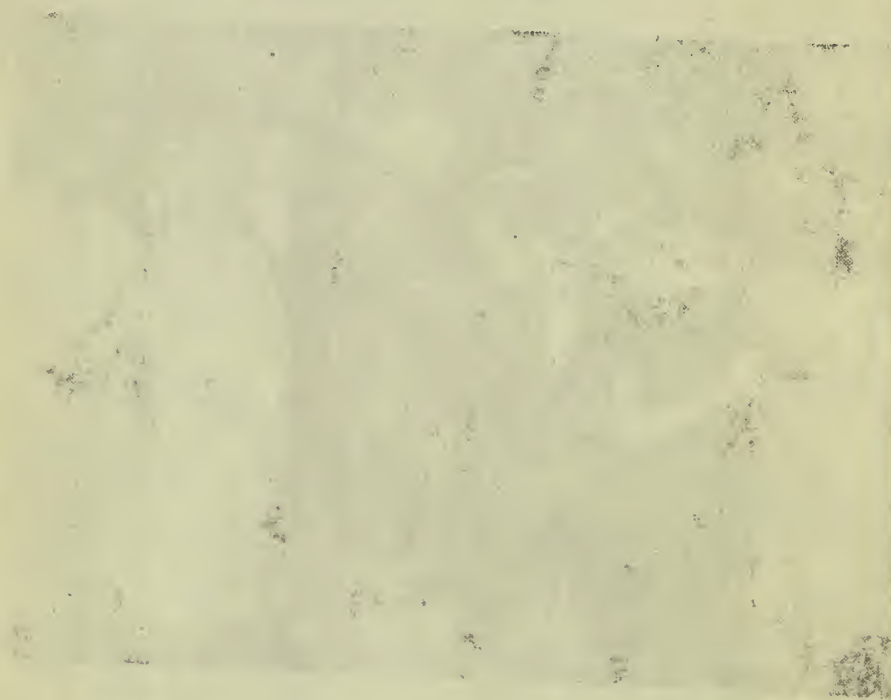
كان عزت باشا ذكياً الى أبعد حدود الذكاء ، ذلك الذكاء العملي الذي يبعد بصاحبه عن مواطن التردد ويضمن له الفوز في الحياة . وقد وجد عزت باشا في « يلدز » وسطاً ملائماً لاستغلال مواهبه ومؤهلاته . ولعل تدرجه في المناصب الادارية المختلفة أعانه على معرفة اهل زمانه ، والاطلاع على أسرار نفوسهم واهوائهم وتلمس مواضع النقص فيها ، حتى استطاع ان ينال من عبد الحميد ما لم يناله غيره من الخطوة والثقة ، على كثرة ما في القصر من مغامرين اذكياء . وقد بلغ من استئثار عزت باشا بأمور الدولة ، انه كان يبلغ الادارة السنوية قبل صدورها . وكان هذه الثقة التي نالها كانت تثير نقمة الحاشية من السوريين وغير السوريين ، امثال أبي الهدى الصيادي ، ونجيب باشا وسليم باشا ملحمة ، والكاكب الاول تحسين باشا وغيرهم ممن يتدافعون بالناكب للفوز برضاء السلطان .

ولم يسلم عزت باشا من نقمة الاتحاديين وأنصارهم المعروفين بالترعة



مهلة المفخرة في فيصل الاول والى بيمينه محمد عزت باشا العابد  
 اخذت هذه الصورة عندما كان جلالة الملك فيصل ملكا على سورية

عبقريات شامية



بسم الله الرحمن الرحيم  
الحمد لله رب العالمين  
والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله  
الطاهرين الطيبين الطيبين الطيبين

تتمت



الطورانية الذين كانوا يرون في فوز عزت باشا فوزاً للعنصر العربي الذي يعملون على محاربته واقصائه عن الحكم . ألم يرو التاريخ أنهم اذا ارادوا ذكر اسم عزت باشا أضافوا اليه كلمة « عرب » امتهاناً للجنس الذي ينتسب اليه ! وما اكثر المؤامرات التي كانت تحاك ضده ، ولكن كان ينجو منها بمهارة عجيبة .

على ان تأمر بني قومه عليه لم يخلق في قلبه بغضاً لهم وحقداً عليهم ، ولم يكن يريد مقابلة الاساءة بمثلها ، فقد كان شديد العصبية لبني قومه العرب برأ باهله ومواطنيه ، هذا وان لم تكن لدينا وثائق أو براهين تثبت عطفه على رجال القضية العربية في العهد الحميدي (١) الا أننا نعتقد انه كان يحرص حرصاً شديداً على كتم عواطفه وكبت عطفه على بني وطنه .

ولما سافر المغفور له الملك فيصل الى اوربا سنة ١٩١٨ لتمثيل العرب في مؤتمر الصلح ، كان عزت باشا يومئذ في نيس . ولما علم بقدوم الملك العظيم خف لاستقباله في مدينة ليون ومكثا مدة معاً وتبادلا الرأي في القضية التي جاء فيصل من أجلها . وقد لقي عزت باشا من قعيد العرب عطفاً سامياً كريماً .

كان عزت باشا سريع الخاطر ، شديد التيقظ والحذر ، ثابت الجنان ، واسع الحيلة ، يلبس لسكل حالة لبوسها ، وما اجتمعت هذه الصفات في رجل الا كان الفوز حليفه عند ذوي السلطان : ففي ١٠ شباط ( فبراير ) سنة ١٨٩٧ خرج اهالي جزيرة كريت اليونانية على الدولة بتحريض ملكهم جورج

(١) عندما ضبط جمال باشا اوراقا سرية في منزل الشهيد عبيد الحميد الزهراوي ، وجد ضمنها تحريراً وجهه عزت باشا الى الزهراوي يؤكد بعبارة غامضة « اخلاصه وبقائه على العهد » وقد حامت الظنون يومئذ حول تفسير الجملة وتأويلها .

الاول ؛ ولما وصلت انباء فظائعهم الى الآستانة . اخذ الرأي العام يطالب الحكومة باعلان الحرب على اليونان ، ولكن السلطان عبد الحميد تردد حينئذ في اعلان الحرب ، لانه كان ينفر من الحروب ويمقتها ، وكان رأي عزت باشا ايضا التريث حتى تعلن حكومة اليونان الحرب على الدولة . فتكون الممتدية في نظر الرأي العام الدولي ، ولما زاد تحرش الكريتيين بالاتراك ، ارسلت الدولة القائد ادم باشا بطل تسالية على رأس جيش كبير على ان يتاقي امرا البدء بالقتال من عزت باشا كاتب سر السلطان ، وكان ادم باشا طوال هذه المدة يتميز غيظاً منتظراً امر الهجوم على اليونانيين . وكان يرسل الانباء المستعجلة الى الباب فلا يلقى عليها جواباً . حتى تناقل الناس يومئذ أن عزت باشا تناول من اليونانيين رشوة قدرها مليون فرنك ليقنع السلطان بعدم اعلان الحرب على اليونان . ولما انتصر ادم باشا على اليونانيين في وقائع مشهورة (١) أراد اتهام عزت باشا بالخيانة العظمى لعدم اطلاعه مولاه السلطان على اعلان الانباء الخطيرة التي كان يرسلها . ويظهر أن عبد الحميد لم يشأ أن يظهر امام قواده بمظهر المتخاذل الجبان ، فأنكر وصول هذه الاخبار . فلما كان من عزت باشا الا ان اعترف خلافاً للواقع في حضرة عظماء الدولة بانه تعمد اخفاء هذه الانباء عن السلطان لان مصلحة الدولة تقضي بذلك . فعجب السلطان من هذه التضحية ! . ولما انصرف القوم قال عزت باشا : أمن اللياقة ان اظهر افندينا بمظهر الكاذب امام الناس ؟ فسر عبد الحميد وقال : أشكرك على ذكائك وفطنتك يا عزت ! ومنحه عطية كبرى .

( ١ ) من المعلوم أن الاتراك هزموا اليونان هزيمة نكراء . وقد انتهت الحرب بتوسط روسيا وتخلي اليونان بموجب معاهدة القسطنطينية ( ١٨٩٧/١٢/٤ ) عن عدة مواقع حصينة استولت عليها عام ١٨٨١ في تساليا ، وتخلت ايضا عن جزيرة كريت ودفعت غرامة حرية قيمتها مائة مليوناً من الفرنكات .

كان عزت باشا يثقأ في بادية الامر من السراي راتباً ضئيلاً حتى جمع باقتصاده وتقديره على نفسه بضعة آلاف من الليرات الذهبية ؛ ولما كسب ثقة السلطان واخذ نجمه في الصعود ، بدأ في تكوين ثروته الضخمة . وهناك مصدر رئيسي لهذه الثروة الطائلة هو ما كان يقبضه من عمالة على القروض التي كانت تعقدتها الحكومة العثمانية مع الدول الاجنبية وفي طلبهم فرنسا . أضاف الى ذلك ما كان يأخذ من جعل لقاء منح الامتيازات المختلفة للشركات الاجنبية الاستثمارية كشركة حصر الدخان ، ومرفأ بيروت ومناجم أرغلي ومرفأ سالونيك ، وبتجديد امتياز البنك العثماني ، وتمديد شبكة الخطوط الحديدية ، وشراء الاسلحة والذخائر للجيش التركي ، حتى آل الامر الى أن « أصبح عزت باشا رئيساً لجميع اللجان المالية والاقتصادية ، وباتت وزارات المالية والاشغال شبه دائرتين يسيرهما عزت باشا نفسه » . وكثيراً ما كانت المصفقات تعقد في غرفته الخاصة . وقد قدرت ثروة عزت باشا عند اعلان الدستور بثلاثة ملايين ليرة عثمانية ذهباً ، أودع معظمها في مصارف اوروبا الكبرى ، واشترى بالباقي عقارات وأطياناً ومزارع في سورية ولبنان .

ومن الامتيازات التي حصل عليها عزت باشا لنفسه امتياز شركة الجر والتنوير بدمشق سنة ١٩٠٦ لقاء ستين ألف ليرة عثمانية ذهباً . فعول على دفع نصف المبلغ من ماله الخاص ، وطرح الباقي للاكتتاب . ولا مراً ما لم يندل المشروع النجاح المقدر له ، فباع عزت باشا الامتياز لشركة « شارلروا » الفرنسية البلجيكية . فكان نصيبه من الربح خمسين ألف ليرة عثمانية ذهباً . وكان قد سجل الامتياز على سبيل الحيلة باسم الامير محمد أرسلان ، فقال الامير مبلغ خمسة آلاف ليرة عثمانية ذهباً نصيبه من الربح .

### الخط المحازي

من المشاريع العمرانية العظيمة التي يجب أن يقرن بها اسم عزت باشا



العابد مشروع الخط الحجازي ، فهو الذي ابدع فكرته ، واضطلع باعبائه ، وأشرف على اتمامه ، مذالما اعترض المشروع من العثرات والمثبطات .

كانت سياسة بريطانيا الدولية والاستعمارية ، منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر موجهة الى حماية طريق الهند ، وكان شغل سياسة الانكليز الشاغل ضمان سلامة المراكز والقواعد الحصينة الواقعة على طريق الهند ؛ وعلى ضوء هذه القاعدة السياسية اكتسب البحر الاحمر والخليج الفارسي أهمية كبرى في حماية النفوذ والمصالح البريطانية في الشرق الاوسط من جهة ، وابعاد شبح الخطر عن طريق الهند الجيوي من جهة أخرى .

على أن هذه الطريق ، التي هي بمثابة شريان يغذي جسم الامبراطورية البريطانية ، قد هدد بالقطع اكثر من مرة ، وفي كل حين كانت انكثرة تبادر بكل مألدها من قوة ووسائل لابعاد الخطر عنه . في سنة ١٨٤٦ كادت تقع الواقعة بين انكلترا وروسيا ، لوقوع تركيا ضمن نطاق النفوذ الروسي ، الذي يخشى من ورائه السيطرة على المضائق . ولما فتحت قناة السويس سنة ١٨٦٩ ، كانت انكلترا أولى المعارضين لمشروع فردينان دي ليسبس ، وكان الوزير الانكليزي بالمرستون يقول سنة ١٨٥٦ : « ان مشروع السويس لعبة شيطانية ، الغرض منها الاستيلاء على مصر ، وفي الوقت نفسه تمهيد السبل لنزول الامبراطورية البريطانية في الهند . » ولذا سارعت انكلثرة الى احتلال مصر ، وشراء كميات كبيرة من أسهم القناة .

ولما انحازت تركيا في العهد الحميدي الى المانيا ، وأذنت بتوسع المانيا السياسي والاقتصادي في الشرق ، أوجست انكلثرة خيفة على امبراطوريتها ، وشرعت في توجيه سياستها في الشرق الاوسط وجهة جديدة ، جاعلة من

أهدافها الاعتماد على العناصر المكونة للملكة العثمانية - ومن جعلتها المنصرم العربي - لاضعاف الدولة العثمانية واجباط سياسة رجالها التي تتعارض مع سلامة انكلترا وسلامة امبراطوريتها !

كان عبد الحميد يرمي من وراء انشاء الخط الحجازي الى غايتين : الاولى ظاهرية شكائية : وهي كسب عطف العالم الاسلامي ، وتقوية الروابط بين مسلمي العالم بتسهيل سبل الحج الذي هو أفضل وسيلة للتعارف والاتحاد ، والثانية سياسية عسكرية تستهدف في الغالب مناوأة السياسة الاوروبية ، لان الخط الحجازي يفيد - اذا تم اتصاله بخط الاناضول وخط برلين - بمقداد الواصل الى الآستانة ، أقول يفيد في نقل الجيوش والمعدات الحربية الى قناة السويس والبحر الاحمر والخليج الفارسي عند الاقتضاء .

ولاحظ فائدة أخرى تنبه اليها عبد الحميد بعد ثوره اليمن سنة ١٨٩٨ ( التي دامت سبع سنوات ) وهي توطيد نفوذ الدولة في جزيرة العرب ، والقضاء على الفتن والثورات ، وكل الحركات الانفصالية فيها . وقد خشي « بعض محرري الصحف الالمانية يومئذ أن يقوم الوهابيون بتحريض من الانكليز باحتلال الحجاز قبل اتمام الخط ، فيقضون بذلك على أحلام امير المؤمنين عبد الحميد الثاني في التوسع » .

وفي الحق أن انشاء الخط الحجازي يعين بدء تحول في السياسة العثمانية زمن عبد الحميد . ففي سنة ١٨٩٧ كتب الجنرال « فون درغواتس » ، المدرب الالماني في الجيش العثماني ، بعد شهوده معركة تساليا ، عدة مقالات عن أسباب قوة وضعف الدولة العثمانية قال فيها : « ومن أسباب ضعف هذه الدولة : اهمال سلاطين آل عثمان منذ قرنين للولايات العثمانية في آسيا ، واضعافهم الدولة في حروب عقيمة للدفاع عن بضعة امتار مربعة في أوروبا مهملين بذلك مصالحهم الحيوية . ولا بد لهم من الرجوع الى سياسة اسيوية ، مصدر الفوائد والقوة ، ولو أدى ذلك الى فقد ممتلكاتهم في أوروبا . زد على

ذلك ، فإن إهمال الدولة لمصالحها في آسيا ، أدى الى توتر العلاقات بين العرب  
والترك ، ونشوء الثورات والفتن التي كلفت الدولة مالا ورجالا تفوق الحصر  
ولذا ارى اذا شاء الاتراك انقاذ دوائهم من التدهور والانحطاط ، أن تحل  
السياسة الاسيوية محل السياسة الاوربية .

من أين يأتي السلطان عبد الحميد بالمال الذي يستلزمه بتحقيق هذا المشروع  
الهائل ؟ كان عزت باشا العابد الذي وكل اليه الاشراف على الخط يعلم يقيناً  
ان الاقتصاد على رعاية الدولة العثمانية غير كفيل بالنجاح ؛ فلا بد اذن من  
اشراك الامبراطورية العثمانية والعالم الاسلامي معاً في تحمل نفقات المشروع .  
فأشار على السلطان بتوجيه دعوة الى كافة المسلمين في انحاء الدنيا ، وحثهم  
على التبرع . وقد افتتح السلطان قائمة التبرعات بمبلغ ثلاثمائة الف ليرة عثمانية  
ذهباً من ماله الخاص ، وتبعه ملك المجمع محمد علي شاه بدفع خمسين الف  
ليرة عثمانية ذهباً ، والخديوي عباس حلمي بما يقرب من هذا المبلغ ؛ وانهارت  
بعد ذلك الاموال من المسلمين وملوكهم وامرائهم . وكانت الهند اسرع  
الشعوب الاسلامية تلبية للنداء واكثرها سخاء . وقد عمد عزت باشا الى  
وسائل محلية دائمة للحصول على المال ، منها بيع الاوسمة والرتب بأثمان تختلف  
حسب الدرجات ، واجبار موظفي الدولة على التخلي عن راتب شهر في السنة ،  
وانقاص مرتباتهم عشرة بالمائة . وأصدرت الدولة طوابع الخط الحجازي ،  
وزادت الضريبة على الجمارك . وبفضل هذه الوسائل وغيرها ، جمع المال  
اللازم ، بعد ان ايقن الناس ، في فترة من الفترات ان المبالغ المقدرة لا تكفي .  
فقد كتب معتمد انكرا في دمشق سنة ١٩٠٤ مايلي : « أصبح الامل بالنجاح  
الخط الحجازي اكبر منه منذ سنة أو سنتين ، واذا قدر للمشروع الفشل بعد  
سنتين او ثلاث ، فلن تكون الاسباب على كل حال مالية ... »

ولما شاع مشروع الخط ، قوبل بالارتياح في جميع انحاء العالم الاسلامي ،  
وأجمعت الصحف على امتداحه واثناءه على السلطان وامين سره عزت باشا



العابد . ومما قالته إحدى الصحف : « ان لخطط الحجازي أهمية تعادل أهمية قناة السويس في العالم الاقتصادي » . وقالت أخرى معددة الفوائد السياسية والاقتصادية والدينية التي تجني من هذا الخط :

(١) تعمير المناطق والسهول الزراعية الخصبة واستثمار الثروات المعدنية في جزيرة العرب ؛

(٢) تحضير البدو والقضاء على اعتداءات الأعراب على قوافل الحجاج والمسافرين بين دمشق والمدينة ؛

(٣) توطيد مقام الخلافة الدينية والزميني ؛

(٤) القضاء على الدسائس والمؤامرات الانكليزية في البحر الأحمر وشبه جزيرة العرب ... »

ويظهر ان السلطان عبد الحميد كان ينوي مد خطين آخرين : الاول من ينبع الى مكة والمدينة ، والثاني من مكة الى المدينة ، وقالت جريدة التايمس الهندية « *Taimes of India* » الصادرة في ٦ نيسان ( ابريل ) ١٩٠٧ : ان « عزت باشا العابد حذر السلطان من ذلك وأشار الى ان تمديد الخطوط من مرافئ الحجاز الى داخل الاراضي المقدسة يجعل الحجاز في متناول الاصابع الانكليزية . فعدل السلطان عن المشروع ومد الخط من دمشق الى المدينة ، وهو الطريق نفسه الذي سلكه الرسول ( ص ) في رحلته الى الشام . »

بدأت اعمال مد الخطوط في دمشق سنة ١٩٠٠ ويظهر ان الاعمال سارت في بادئ الامر بسرعة لم تعهد في تاريخ الخطوط الحديدية . فقد انتهت المرحلة الاولى دمشق - درعا في ٥ ايلول ( سبتمبر ) ١٩٠٣ ، وانتهت المرحلة الثانية درعا - عمان في اواخر تشرين الثاني ( نوفمبر ) ١٩٠٣ ، والمرحلة الثالثة عمان - معان في ايلول ( سبتمبر ) ١٩٠٤ ، والمرحلة الرابعة معان - تبوك عام ١٩٠٦ ، والمرحلة الخامسة تبوك - مدائن صالح عام ١٩٠٧ . وفي ٣١

آب ( اغسطس ) من سنة ١٩٠٨ احتفل بالخط الحجازي ، يوم عيد جلوس  
السلطان عبد الحميد الثاني . وقد كافأ السلطان امين سره عزت باشا مكافآت  
سنية ، وكذلك نال المهندس الالماني « مايسنر باشا » عطايا كثيرة جزاء جهوده  
وكتبت جريدن الطان في عددها الصادر في ٤ ايلول ( سبتمبر ) سنة ١٩٠٨ :  
« لو لم يكن لعزت باشا الى جانب اخطائه الافضل انشاء السكة الحجازية  
الكفي » .

هذا وقد اعترضت الخط عقبات ومصاعب مالية جمّة ، نسب بعض  
المؤرخين اسبابها الى سوء تصرف عزت باشا نفسه وأعوانه من اعضاء  
اللجنة العليا للخط الحجازي بأموال التبرعات ، مما أدى الى استعراخ المسلمين  
للتبرع وفرض ضرائب جديدة .

ومن هذه المصاعب اعتداءات البدو الذين يعيشون من تجارة القوافل  
حتى اضطرت الدولة الى استبقاء قوة مسلحة كبيرة للمحافظة على سلامة الخط .

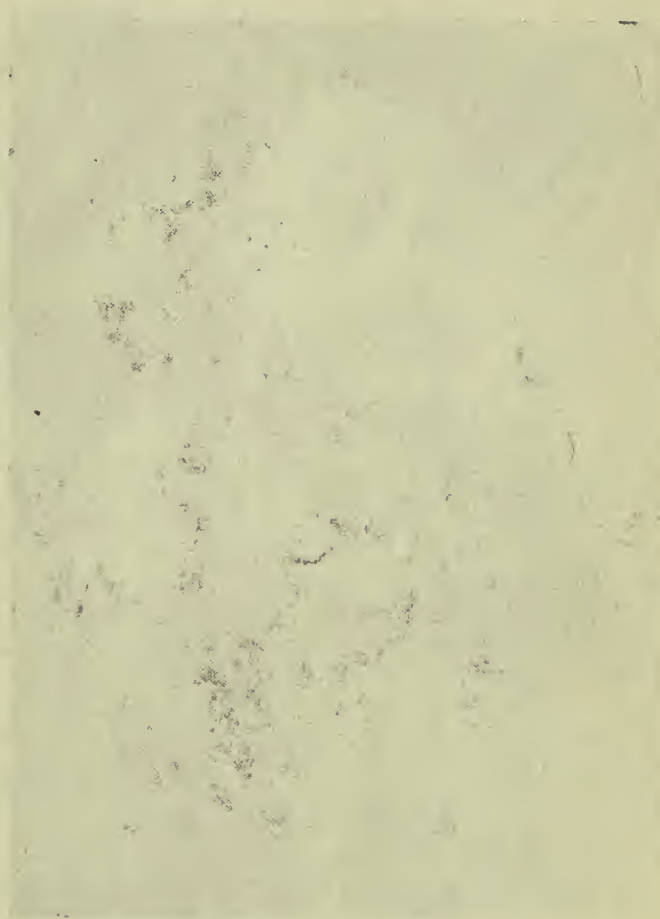
وفي اليوم ذاته احتفل بالخط البرقي الذي انشأه عزت باشا بين دمشق  
والمدينة . وكان نص البرقية الاولى التي ارسلت من الآستانة الى شريف  
مكة : « ان جلالة السلطان عازم على اداء فريضة الحج المباركة . » ولكن  
الاقدار لم تمهل عبد الحميد لتحقيق هذه الامنية !

---



علي رضا باشا اركاني





2000

## علي رضا باشا الركابي

رئيس الوزارة الفيصلية الاولى  
وحاكم دمشق العسكري

ولله ما أوفى الركابي صاحباً ،  
وكان زعيماً عند زحف الفيالق ،  
وكم صدمته الحادثات ملحّة  
عليه ، فلم يجزع لوقع الطوارق !  
وما بلغت منه الوشاية مأرباً ،  
وان هي سجت بالسهم الدوافق !  
الشيخ فؤاد باشا الخطيب

يعتبر دخول الجيش العربي دمشق في اليوم الثاني من تشرين الاول سنة  
١٩١٨ فاتحة عهد جديد في حياة الامة العربية ، ونهاية مؤقتة لهو واثورات  
والنضال .

كان لا بد للعرب ، ككل امة ناشئة ، لم تستكمل بقدر وعيها السياسي ،  
حديثه المهمل بالحرية والحكم الذاتي ، من مواجهة عقبات تعترض سير تكوين

الدولة الجديد . ولعل أصعب ما واجهته بلاد العرب المنفصلة عن الدولة العثمانية ، ضعف النمرة القومية في النفوس ، وقلة الاكفاء المخلصين من الرجال ، وأعني بذلك : رجال الدولة من مصلحين وموحدين ، وذلك أن العهد التركي ، وبخاصة في أدواره الانحلالية الاخيرة ، كان شديد الوطأة على العرب عامة ، والسوريين خاصة . فقد سار بزعماء الترك ، من اتحاديين وغيرهم ، على خطة منظمة في قتل النمرة العربية ، واضعاف العنصر العربي ، باستخدام أساليب فعالة شتى : منها اقصاء من توسموا فيهم ميولا قومية استقلالية شديدة ، واستئصال الاكفاء المستنيرين بالقتل آونة ، والتشريد والنفي آونة أخرى ، الامن عصمتهم التقية والتظاهر بالولاء للاتراك ، والاختلاص لقضيتهم . فاصيب العرب من جراء هذه السياسة في صميم حيوياتهم بضربة شديدة أدت الى هذا القحط المريع في الرجال ، وندرة العاملين المخلصين في الشرق العربي .

نعم ! لقد كان هناك فئة من الرجال الممتازين المحيطين بالمغفور له الملك فيصل ، ولكن نصيب الشام من هؤلاء الرجال كان ضئيلا . فقد فضل معظمهم ، عقب معركة ميسلون ، الرحيل مع الملك العظيم الى العراق ، والعيش في ظله ، على البقاء تحت سلطان الاجني ، فأوقفوا جهودهم على بناء الدولة العراقية الجديدة .

من الرجال العظام الذين عملوا في بناء الدولة العربية الفتية « علي رضا باشا الركابي » ، فقد عاش في عهد انتقال ( وليس اصعب من عهود الانتقال على المصلحين ) عهد ساد فيه الانحلال الخلقي والاجتماعي ، وسرت روح الرشوة والحيانة بين الموظفين ، حتى اضحت البلاد في حاجة الى رجال اشداء عمليين ، يفيدون هيمة الحكم الى نفوس الناس ، ويرفعون من شأن الادارة ، ويمعنون في القلوب الشعور بالواجب ، والكرامة والتضحية في سبيل الدولة والنفع العام . وكان الركابي باشا احد الذين تصدوا لهذا العمل الجبار .



## حياة الركابي

ولد علي رضا باشا الركابي في دمشق سنة ١٨٨٦ م . وتلقى دروسه في المدرسة الرشدية العسكرية ، ثم انتقل الى المدرسة الاعدادية . وبعد أن أنهى دراسته في هاتين المدرستين ، أُرسل لتفوقه ونبوغه الى المدرسة الحربية في الآستانة ، فأتم دراسته وتخرج منها برتبة « رئيس اركان حرب » بدرجة ممتازة ؛ ثم تدرج في المناصب العسكرية ، حتى بلغ رتبة « زعيم اركان حرب » وعين قائداً للجيش العثماني المرابط في القدس ، ووكيلاً لمصرفها . ولما أعلنت الدستور العثماني ، عين رئيساً للشعبة الخصوصية في الآستانة ، ثم نقل منها الى المدينة المنورة ، فعين محافظاً لها وقائداً لجيشها ، بعد أن رقي الى رتبة اميرلواء ، ثم نقل الى العراق حيث تولى قيادة الجيش في بغداد والبصرة .

وفي عام ١٩١٤ ، عند ما أعلنت الحرب الكبرى ، استشارت الدولة العثمانية قوادها في دخول الحرب الى جانب حليفها المانيا ، فكان من رأي الركابي باشا وهو الخبير بامور الدولة ، والدراية بمواطن الضعف والقوة ، البقاء على الحياد لضعف الدولة وعدم استعدادها . فلم يرق هذا الرأي الاتحاديين وانصار الحرب ، فأحيل لهذه الروح الانهازمية على التقاعد . ولما عاد الى دمشق ، اراد جمال باشا ان يكون الركابي باشا على مقربة منه للاستفادة من خبرته من جهة ، ولتسهل عليه مراقبته من جهة اخرى . فأُسند اليه رئاسة بلدية دمشق ، ورئاسة التحكيمات ، فقبل بهذين المنصبين دفعا للشبهات . وكان مصدر هذه الشبهات أن الركابي كان احد مؤسسي « الجمعية العربية الفتاة » و « جمعية العهد » ، وهما الجمعيتان اللتان بذرتا بذور القومية العربية في زمن العثمانيين .

## الركابي والثورة العربية

ولما أعلنت الثورة العربية الكبرى لم يكن للركابي فيها نصيب عملي يذكر

ولا صوت مسموع ؛ على أنه كان في ادوارها الاخيرة ، كما يذكر لورنس في كتابه « اعمدة الحكمة السبعة » على صلة بالمغفور له الملك حسين ، وببجته العظيم فيحصل .

وبعد دخول الجيش العربي دمشق ، عين الركابي باشا حاكماً عسكرياً للمنطقة الشرقية من بلاد العدو المحتلة .

ولما اعلن المؤتمر السوري استقلال سورية في الثامن من شهر آذار سنة ١٩٢٠ ، ونودي بفیصل بن الحسين ملكاً ، عهد اليه بتأليف اول وزارة دستورية عربية (١) فتسلم الركابي باشا زمام الامر ولقب بالحاكم العسكري .

### الركابي في الاردن

ولما احتل الفرنسيون سورية ، عقب معركة ميسلون المشؤومة ، رحل الركابي باشا الى مصر ، ومنها الى الحجاز . فكلفه جلالة الملك حسين بالسفر الى شرق الاردن لمعاونة الامير عبد الله في تأسيس دولة شرق الاردن . فالف في ١٢ آذار سنة ١٩٢٢ الحكومة الاولى بعنوان رئيس المستشارين ، وعمل على تنظيم قوانين البلاد وانظمتها المالية وجهازها الاداري . ثم انتدبه الامير عبد الله في ٣ تشرين الاول سنة ١٩٢٢ لمرافقته الى لندن لعقد معاهدة بين بريطانيا العظمى والاردن ، والبحث في شؤون العرب . ولكن شيئاً من هذا لم يتم ، فاستقال الركابي باشا وعاد الى الاردن في ١٦ كانون الثاني سنة ١٩٢٣ فألف الوزارة للمرة الثانية في ٣ أيار ١٩٢٤ (٢) .

( ١ ) جاء في المنشور الذي اذاعه الملك فيصل على الاهالي سورية في الخامس من شهر تشرين الاول سنة ١٩١٨ : « عهدت الى السيد رضا باشا الركابي بالقيادة العامة للحكومة نظراً لثقتي باقتداره ولياقته » .

( ٢ ) حدد الركابي برنامجه وزارته كما يلي : « اتباع الصديق والاخلاص في القول والعمل ، والعزم والحزم في الامور ، وتوزيع العدل بين افراد =

ولما نشبت الثورة السورية سنة ١٩٢٦ كان الركابي فيها مواقف مشرفة في الدعوة السرية للثورة والعمل على اذكاء نارها واغاثة اللاجئين منها .

وعند انتهاء الثورة استقال من شرق الاردن واقام في حيفا والقدس ، يعيش عيشة الكفاف والضيق ، الى ان سمح له بالعودة الى وطنه دمشق .

ولما توفي جلالة الملك فيصل ، اعتزل الركابي باشا الحياة السياسية واقام في منزله في ظاهر دمشق منقطعاً عن الناس الى ان وافاه اجله يوم الاثنين في ٢٥ ايار سنة ١٩٤٢ .

وقد اصاب في اواخر حياته بالشلل النصفى ، ولكن ظل محافظاً على وعيه حتى الرمق الاخير .

### صفات الركابي

كان الركابي باشا قصير القامة ، ممثليء الجسم ، ضخم الرأس يكاد يلتهم كل جسمه ، براق العينين تشبهان عيون الطيور الجارحة ، يصعب على محدثه التحديق اليهما . وكان هذا البريق ينبعث عن حيوية هائلة كامنة لا تجد منفذاً الا في الحركة والعمل .

والركابي باشا شخصية فذة نادرة : ووجه الندرة فيها انها تحقق التوافق العجيب بين الفكر والعمل . ذلك التوافق الذي عرف به العسكريون وكبار

الشعب، والمراعاة التامة للقواعد الاقتصادية والكفاءات في الوظائف والموظفين والنققات ، وقمع بذور الفساد وما يسيء السمعة بكل شدة ، وعدم التحزب والتعيز والتعاضد والتسكاتف في جميع امور الاصلاح ، وصيانة المنطقة من الاحوال الخلة بالامن .. »

ولا حاجة للبيان ان جميع هذه الامور تعبر تماماً عن ميول الركابي باشا واتجاهاته في حياته الادارية .



الساسنة وقادة الشعوب ، فهو لا يكاد يتصور الفكرة حتى يبادر الى تنفيذها فلا مجال عنده لتسرب التردد ، وتسلب الخيال . وقد أثر عنه انه بينما يكون جالساً في مكتبه بين دفتاره وأوراقه ، اذ به يقف فجأة وينحدر قاصداً الامكنة النائية في الدولة ، للتفتيش عن الموظفين ، والتثبت من صلاح الامور وانتظام سير الاعمال ، حتى بات الموظفون يتصورون ان عين الركابي الساهرة ترمقهم في كل لحظة بنظراتها الحادة القوية التي ينبعث منها الشرر والضياء .

وفضيلة اخرى يجب ان تقرر الى حبه للعمل ، تلك الجرأة والارادة الصلبة في التنفيذ ، فكأنه لا يهاب احداً ، ولا يخشى معارضا او خصما . ويخيل الي ان جماعاً من الناس كان يستطيع الفتك به ، ولكنهم لا يستطيعون ان يخيفوه ، اذ لم يعرف الخوف الى قلبه سبيلاً . ثم ان الخوف في نظر الركابي باشا معناه الذلة والاعتراف بالعجز ، وهذان امران يأبأها طبعه القويم ، وخلقه الوعر ، ومزاجه الحاد .

كان رحمه الله من اعداء « الذسبية » و « المحسوبية » ، الالاء ، وهما عادتان ذميمتان حرص الناس عليها حتى غدتا من الاسس التي تشاد عليها القيم ، وعلاقات الناس في الشرق العربي . وقد لاقى ذووه واهله من جراء ذلك الوائاً من الظلم والخيبة ، وهو الى ذلك يعمق الاوضاع الشاذة التي تتنافى وفكرة العدل والمساواة . ولذا ضعفت في نظره الاعتبارات والاصطلاحات التي تقاس بها علاقات الافراد في المجتمع ، كالصدقة ، والوجاهة ، والمنافع المتبادلة ، القرية منها او البعيدة .

كان في مقدور هذا الرجل السير مع تيار زمانه ، والاغضاء عن النقائص فيعيش سميحاً هادئاً ينعم بدينه ولذائدها ، فقد تجمع لديه الجاه والسلطان والمقدرة والذكاء والشهرة ، ومقاليد الامور بصرفها على هواه .

ولكن اني له ذلك فيكون قد ناوأ طبعه وخالف نشأته ، وثار على دخيلته ! وما اخذ على نفسه - منذ بدء حياته الى منتهائها - من السير في طريق قويمه لاعوج فيها ولا التواء .

وكان الركابي باشا قد عاش في هذه الدنيا الصاخبة وحيداً ، فان نزاهته التي اصبحت في زماننا النكد مضرب الامثال ، قد صنعت كلها من الطهارة ، طهارة اليد وطهارة الوجدان . فهو لم يكن على شاكلة اناس كثيرين ، يرون في عصور الانتقال والاضطرابات والفوضى ، دافعا للتضحية بالامانة والاخلاق بالشرف ، والاستهانة بالكرامة .

هذا هو معنى الوحدة التي لزمها وانس بها في حياته . فكان من اثر ذلك ان ابتلي الرجل بانواع الخصومات الظاهرة والخفية ، وذاق طعوم الحرمان ، ومنع الدعة التي استحقها في اواخر حياته ، وشرد في الآفاق ، حتى صح فيه قول ابي الطيب :

وحيد من الخلان في كل بلدة اذا عظم المطلوب قل المساعد

كان اذن ، لا يفسح مكاناً للوساطات والزاني والشفاعات التي هي من ابرز عيوب الخلق الشرقي والخلق السوري على السواء .

حدثني رجل ممن خبروه زمناً ، وبلوا اطباعه ، انه كتب مرة الى مدير الصحة بعزل احد الاطباء ، لانه « نقل عن لسانه كلاماً لم يقله » ، وكان عذره في الاقدام على هذا العمل ان هذا الموظف « لم يشتمل على صفات يجب ان تتوفر في كل موظف نزيه » !

كان الموظف في ذهن الركابي باشا صورة مثالية ، حرص طوال حياته على تحقيقها ، فالموظف في نظره عنصر فعال في جهاز الدولة ، مسخر للخدمة العامة . وكان اكثر ما يخيفه عند الموظفين ، ضعف الوازع المسلكي الذي

يؤدي الى التراخي والفتور في اداء الواجب وتسهيل المصالح . وكان يعلم ان فساد الموظف يعود بأسوأ النتائج على المجتمع ، ويعمل على قتل الكفاءات وتفشي داء الملق والمصانعة والدجل ، وسلوك الطرق الموحجة لنيل الخطوة والمثالة عند اولي الشأن وذوي السلطان .

حدثني من ائق بمحدثه قال : عزم الركابي باشا ، يوم كان رئيساً للوزارة على زيارة مدينة حمص . وكانت المدرسة التجهيزية ضمن الاماكن التي قرر الباشا زيارتها . فاخبر مدير المدرسة بالامر ، وكان يومئذ السيد عبد الحميد الحراكي فجمع هذا الاساتذة والطلاب وسار في طليعتهم الى المحطة لاستقبال دولة الباشا ، حاملين الاعلام ، منشدين الاغاني الوطنية . ولما وصل الركابي باشا وقدر ما اضاعه هؤلاء الطلاب من الجهد والوقت في استقباله ، غضب غضبة شديدة ، واستدعى المدير وأنبه على فعلته ، وكان مما قاله : « اني قدمت حمص لشؤون ادارية رسمية ، منها تفتيش المدارس ، والأطـلاع على سير الاحوال والتدريس فيها ؛ وسأكون في مدرستك بعد ساعة » . فما كاد مدير المدرسة يسمع هذا الكلام حتى اشار على المعلمين والطلاب بالرجوع الى المدرسة من اقصر طريق ، فاندفعوا جميعاً ، وعلى رأسهم المدير مهرولين بين الازقة والحارات ؛ ولم تمض ساعة حتى كان الباشا في المدرسة يتفقد صفوفها .

تلك حادثة من حوادث عديدة يتناقلها الناس كلما ذكر الركابي ، أو كلما افتقدوا الاكفاء ، أو اعوزتهم الرجال الخالص ، وهي بليغة في الدلالة على احترام الركابي باشا الواجب وتقديسه ورعايته للمصلحة العامة .

كل هذا لا يعني ان سيرة الركابي باشا منزهة عن الاخطاء والعيوب : فان خصومه يتهمونه مثلاً بضمف العقيدة القومية ، ويستشهدون على ذلك بحوادث جرت في العهد العثماني التزم فيها الركابي باشا ، بحكم وظيفته ، جانب



الترك ضد بني قومه العرب (١). والحقيقة ان الاخلاص عنده لم يكن محدوداً  
بزمان او مكان ، فقد كان مخلصاً لعمله ووظيفته زمن الترك ، يعطيها من  
قلبه ودمه وفكره ، كما كان مخلصاً لها زمن الحكم العربي ، وكما كان في كل  
مكان طوحت به الايام اليه !  
وهذا ، لعمرى ، اقصى مدى الاخلاص المجرد !

(١) يقول جلالة الملك عبد الله في مذكراته ص ٤٨ : « وكنت والركابي  
محافظ المدينة - اوصلت الحج الى طيبة على ساكنها افضل الصلاة والسلام .  
فزرتني امير حج ابن رشيد وقال : ان المحافظ منعه من دخول المدينة  
المنورة ومعه علم ابن رشيد ، وهو علم اخضر مكتوب عليه  
« لا اله الا الله ، محمد رسول الله » ، فاذا لم يسمح له بذلك فسيعود بالحج ، وانه  
كلم المحافظ بعزمه فلم يأبه له . فزرت الركابي باشا وقصصت عليه ما بلغني  
فقال : لا يدخل هذه البلد ولا يرفع بها العلم العثماني . فقلت يا حضرة الباشا ،  
جرت العادة بهذا وقد دخل مكة معه علمه ، فاذا اصررت على رأيك عادم من معه قبل  
أن يزوروا المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فماذا عساه أن يكون اذا دخل كالعادة السابقة ؟  
قال : لا يكون هذا ابداً . فقلت : الامر خطير ، وأنا أسألك كمحافظ ، وسأسأل وزير  
الداخلية بيرية بصفتي النائب الحجازي في مجلس المبعوثان العثماني ، عن حقيقة ابن  
رشيد ، هل هو صاحب امانة مستقلة ، لا ينبغي رفع علمها الا باذن ومراسيم  
خاصة ، أم هو امير تابع للدولة يحمل علم الحجاج الاخضر لان محافظ المدينة  
رفض دخول الحاج على الطريقة المعتادة ، وقال : ان لا علم هنا غير العلم العثماني  
وهذا يشير الى ان ما يمد امير الحاج علم غير عثماني : فقال لي . ارجوك ! لا تفعل  
وانا قد أخطأت ... ثم استدعى امير الحج وسمح له !!! »